الهدى

فكرية إسلامية جامعة

العدد 21 — جمادى الأولى 1410 / دجنبر 1989

الثمن : 8 درهم

ملف العدد

التربية فلسفة وتاريخا ومستقبلا

- **فلسفة التربية الاسلامية**

  للدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **قراءة في الكتابات التربوية الاسلامية من ابن سحنون الى ابن خلدون**

  للأستاذ عبد الناصر السباعى

- **المنهج في استشراف المستقبل / التربية نموذجا**

  للأستاذ محمد بريش

أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟... إن لكم فيه لما تخيرون !!

الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

سورة البقرة

المحتويات

مع القراء

توصلنا من الأستاذ جمال الدين أبو ياسين من القاهرة بالرسالة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الأخ الفاضل : المفضل فلواتي (المدير المسؤول عن مجلة الهدى).

السلام عليكم ورحمة الله، بركاته، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين :

ثم أما بعد :

فقد كان لي كبير الشرف أن يسقط أحد أعداد مجتلكم الموقرة بيدي، خاصة العدد المزدوج (شهري : صفر ـــ ربيع الأول من سنة 1308 ـــ شتنبر ـــ أكتوبر 1987)، فقد كان عددا ممتازا سواء من حيث المواضيع المدرجة، أو من حيث الأقلام التي تناولت تلك المواضيع بالدرس والتحليل، ولا شك أن الأهمية تبدو بالغة إذا ما قارنا ذلك بالفراغ الملاحظ في الساحة الثقافية بوجه عام، وفي الساحة الاسلامية بوجه خاص.

وإذا كان لي من ملاحظات على هذا العدد بالخصوص لأنه الوحيد الذي استطعت الحصول عليه :

فمن حيث المضمون فإن المواضيع المدرجة تأخذ حيزا كبيرا من المجلة إذا ما قسنا ذلك بالنسبة لحجم المجلة نفسها.

قد يلاحظ بشكل واضح غياب المواضيع الأولية أو بالأحرى الأساسية لتكوين المجتمع سواء ما يتعلق بابيت أو المدرسة أو التربية والقضايا المعاصرة لتكوين البيت والمجتمع المسلمين، وهي مواضيع ذات أهمية بالغة خاصة في هذه الفترة التي تشهد فيها الساحة الاسلامية حالة انتكاسية لما حدث في السبعينات، أو كرد فعل ذلك.

عدم وجود تنسيق فني في المجلة، فترتيب المواضيع لايخضع لاعتبارات ذوقية (هيكلة ـــ اقتباسات من المواضيع...).

هناك أخطاء مطبعية كثيرة ومع الأسف الشديد أن يشمل ذلك الآيات والأحاديث النبوية، فعلى سبيل المثال :

ص 2، السطر 11 من أسفل، خطأ وقع في الأية (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) بزيادة واو في أول الآية وإثبات وإن محل وأنا.

ص 4، السطر 10، ع 1 : ورد خطأ في الحديث فقد وردت كلمة الضعيف مكان كلمة الضيف.

ص 6 : السطر 18، ع 2 : ورد في قول السيدة عائشة رضي الله عنها :

(... فيفصم عنه جبينه ليتفصد...) والصحيح (فيفصم عنه وان جبينه...).

ص 7، السطر الأخير، ع 6 الآية من سورة الطور حذف منها لفظ (به) والصحيح إثباته (نتربص به).

هناك أخطاء مطبيعة كثيرة تخل بسياق الكلام ـــ وأرجو أن يتدارك ذلك خاصة بالنسبة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

«تنبيه» لما وقع إلي هذا العدد من مجلتكم فاتحت الدكتور محمد مصطفى هدارة للتكلم معه حول موضوع الحداثة والتراث... وقد كان من الأسف الشديد أن الدكتور لم يحصل على نسخة من العدد ولا يعلم حتى بنشر الموضوع، فهل يمكن تدارك هذا الخطأ ؟!

إذا كان لابد من كلمة أخيرة فإني أستسمحكم في هذه الملاحظات، وإن جهدكم ولا شك سيبقى صرحا شامخا، وهو إن شاء الله من باب الكلمة الطيبة. وفق الله خطاكم وأعانكم على تحقيق ما تصبون إليه من خير لهذه الأمة.

استودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

جمال الدين أبو ياسين ـــ المنيل ـــ القاهرة. جمهورية مصر العربية.

حرب بالقاهرة صبيحة يوم الثلاثاء 21 ذو الحجة 1409 24 يوليو 1989.

الهدى : نشكر الأخ جمال الدين أبا ياسين على هذه العناية بالهدى، وعلى النصيحة الموجهة الى الساهرين عليها، ونقول للأخ الكريم :

1) إننا حاولنا مرارا القضاء على الأخطاء المطبعة فاستطعنا التخفيف منها، ولكننا لم نفلح ـــ مع الأسف ـــ في القضاء عليها، ونحن جادون إن شاء الله تعالى ـــ قياما بالواجب وعملا بالنصائح المسداة لنا من الأخوة أمثالكم ـــ على تنقية المجلة منها.

2) إن الفراغ الذي لاحظته فيما ذكرت هو نتيجة عدم وجود من يكتب في ذلك بانتظام والعمل جاد لسد ذلك الفراغ إن شاء الله.

3) سنرسل لك المجلة إن شاء الله، وننتظر تقويمكم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

الهدى

مجلة
إسلامية جامعة تصدرها جمعية
جماعة الدعوة الإسلامية بفاس

المدير المسؤول: المفضل فلواتي

العنوان : حي عز الله - زنقة 2
رقم 1 - شارع الموحدين - فاس

العدد الواحد والعشرون

جمادى الأول 1410
دجنبر 1989

الثمن : 8 دراهم

رقم الايداع القانوني : 26 - 82

التصفيف : دار الأخبار للطباعة
58 شارع باتريس لمومبا الرباط

الطباعة : مطبعة فضالة
المحمدية

ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه
المقالات التي لم تنشر لا ترد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

هذاالعدد الذي نضعه بين أيدي قرائنا الكرام ــ وهو العدد الحادي والعشرون ــ يتركز محوره الرئيسي حول قضية لا نظن أن أحدا تخفى عليه أهميتها وخطورتها؛ وهي قضية التربية. فرغم أن عوامل أخرى قد تزايد ضغطها وطغى تأثيرها على حياة الدول والمجتمعات ــ كالعوامل السياسية والاقتصادية والاعلامية ــ فإن عامل التربية والتعليم يظل لحد الآن العامل الأول الذي يصنع واقع الأمم، ويحدد مستقبلها، ويحل أو يعقد مشكلاتها (في تفاعل مع العوامل الأخرى طبعا).

ولعلنا نحن المسلمين من أكثر الأمم التي تعقدت مشكلاتها وتضخمت بسبب التخبط الذي يعاني منه نظامها التعليمي وتوجيهها التربوي حديثا، وهو تخبط تتجاذبه الدواعي الوطنية والمؤثرات الاستعمارية، تتجاذبه القيم الاسلامية والضغوط العلمانية، ويتجاذبه التعريب والتغريب... الى مظاهر أخرى للصراع الذي يمزق الأجيال ويفرقها شيعا !!

لقد أصبح من المُسلّمات التي يرددها عامة رجال التربية ــ منظّرين وممارسين ــ أنه لابد لكل نظام تربوي وتعليمي يراد له النجاح والعطاء أن يقوم على فلسفة مستمدة من شخصية الأمة، من عقيدتها وقيمها، ومن فكرها الراسخ الذي تجتمع عليه وتتوحد به، وتتحرك بوحيه. هذه هي «الفاتحة» في الاقلاع التربوي، وهي القاعدة في البناء التعليمي، فإذا ظل المسؤولون عن تربيتنا وتعليمنا يجهلون هذه المسلّمة فتلك مصيبة، وإذا ظلوا يتجاهلونها فالمصيبة أعظم.

إن هذه المسلّمة تعني ــ في كافة العالم الاسلامي ــ شيئا واحدا واضحا، هو أن تربيتنا يجب أن تكون تربية إسلامية، والى جانب ذلك، ومن خلال ذلك أيضا، نجعل تعليمنا عصريا وتنمويا وراقيا وفعالا... وبدون هذا، ليس أمامنا إلا مزيد من التخبط والتمزق والتبعية.

الهدى

الافتتاحية :

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فيه تَدرسون إن لكم فيه لما تخيَّرونَ... ؟!

أخفقت مرة أخرى بعض الحركات الاسلامية ــ بالمغرب العربي ــ في الحصول على تأشيرة العمل القانوني المسموح به لكل حزب كيفما كان لونه، وقد سبقتها في هذا الاخفاق حركات أخرى بالمشرق العربي.

والطريف في هذا الاخفاق أن المنع السابق كانت حيثيته مستندة الى القانون القاضي بمنع تأسيس الأحزاب على أساس ديني، لأن البلاد اسلامية ! وبعد اختيار الاسم البعيد عن الشبهة، جاء الرفض هذه المرة معللا بأن بعض الأشخاص المقترحين للتأسيس لايتوفرون على الحقوق المدنية، لعدم استيفائهم المدة القانونية الكافية لابراء جرحهم من السجن. وما زالت ملفاتهم معروضة على المختصين في «الجرح والتعديل».

إن الرفض المعلل سواء بإسلامية الدولة، أو بانتظار براءة الجرح، يتطلب بالحاح الدعوة الى المراجعة الشاملة للقوانين المحتكم إليها، وإعادة صياغتها صياغة تتلاءم وتوجهات الدولة الاسلامية من جهة، ومن جهة أخرى إعادة النظر في التفسيرات المتعسفة لبعض النصوص القانونية حتى لاتبقى متخلفة عن ركب عصر الصحوة.

فالتفسير المنطقي المقبول للنص الدستوري الصريح بإسلامية الدولة يقضي بأن لايسمح القانون المتفرع عنه بتأسيس أي حزب مخالف لروح الاسلام في الشكل أو في الجوهر، وليس العكس.

صحيح أن الشعوب المسلمة إسلامية التوجه، لايجادل في ذلك أحد، ودسترة إسلامها من باب تحصيل الحاصل، وليس لأحد في هذا منة أو صدقة، وإنما هي صبغة الله المنان الذي اختار هذه الأمة ــ لحكمة ــ ليستودعها هذه الامانة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، ولكن السؤال : كيف يدستر الاسلام، ويصنع ــ قانونا ــ العاملون للاسلام ؟!!

إن للهيمنة السياسية المطلقة مذاقا آخر يتفق مع مزاجها وتكوينها، وتوجهها وتوجيهها، قد لايتفق مع أذواق الجماهير المتعطشة للقاء بالاسلام في المدرسة والمحكمة، ومنابر الاعلام والرأي والشورى، ومكاتب التخطيط والتشريع... ما أبله هذه الجماهير إذا كانت تطمح الى أكثر من تسجيل إسلامها في دستورها !!! فإسلامها محفوظ شكله ورسمه واسمه، وماذا بعد ذلك ؟! أتريد أن ترجع الى عهد (الظلامية) الذي كان أول خليفة فيه يقول للناس : «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» اقتباسا من قول الله تعالى «ولا يعصينك في معروف» ــ الممتحنة، واهتداء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ؟ إن ذلك كله رجعية وتأخر، ومنطق ثقيل على قلوب المهيمنين سياسيا وفكريا، وتمرد على التوجه الموغل في التبعية.

على أن الأمر كله لاخطر فيه لو توفرت ظروف الحوار النزيه وشروطه، ولكن الخطر يكمن في انعدام الحوار وإغلاق أبواب النقاش واعتبار التفسير قانونا مكملا وملزما بقوة الكلمة والنفوذ، لابقوة الحجة ونصاعة البرهان، في عصر يئن بأحمال الشعارات الديمقراطية !! إلا أنها ديمقراطية مبطنة بالقمع السياسي، والحصار الاعلامي، والمطاردة المعيشية والتصنيم الحزبي والفردي.

إن توفير الجو المناسب للحوار يساعد على الفهم والتفهيم وتقريب المسافات، ويعمل على توحيد الرؤية ولو في المستقبل البعيد، فقد يكون التعارف أحيانا ناشئا عن توجس وتقدير صحيح للمنطلقات التي ينطلق منها الراغبون في القيام بأمر الدعوة. ومن جملتها (على سبيل التذكير) :

الاستجابة لأمر الله تعالى بمقتضى التعاقد الايماني الذي يربطهم به رباط محبة ووفاء وإخلاص، والذي على أساسه خاطبهم بقوله : «يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» الأنفال ــ ثم استنهضهم للتحرك في الجبهات المقومة للأمة، والمؤسسة لخيريتها محليا وعالميا. «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» آل عمران ــ فالدعوة حماية وتحصين وتطويح بالشر المتربص من بعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترسيخ للخير، وكنس للمفاسد الداخلية، وشحذ لفعالية الأمة، وتجديد لخلاياها وأنشطتها وقدراتها على الابداع الحضاري الخلاق الذي لايخبو نوره، وكيف يخبو نور تمده السماء !!؟

إن الجندي إذا لم يتعهد بالتدريب المتواصل كان عبئا ثقيلا على القائد في أية معركة، فكذلك الأمة إذا لم تتعهد بالاصلاح والتهذيب والشحذ والانهاض لاينتظر منها إلا أن تدخل متحف التاريخ، رحم الله عليا وكرم وجهه، ما كان أبدعه وأفقهه يوم أن جاءه رجل فقال : «إن هذا زعم أنه احتلم بأمي، فقال علي : أوقفه في الشمس ثم أجلد ظله»، حلم بظل !! الأمة مسلمة !! والدستور مسلم !! فلم لاتعيش الأمة في ظلال الأوراق ؟! وهم في وهم !! وتخدير في تخدير !! ضدا على قول الله تعالى : «الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»... الحج. أي بعد التمكين ينبغي الحفاظ على شروط الصيانة الضرورية لاستمرار الذات كي تثمر نهضة مباركة، وفلاحا مطردا، فرديا وجماعيا، ماديا ومعنويا، دنيويا وأخرويا.

وعلى أساس مقتضيات الاستجابة لايبقى مجال للتردد في النهوض بمسؤولية الدعوة إبراء للذمة أمام الله تعالى الذي أمره هو الأمر ونهيه هو النهي، وحسابه هو الحساب، وهيمنته هي الهيمنة، ووعده هو الوعد، ووعيده هو الوعيد... فلا مقارنة نهائيا بين أمر إلهي وقانون بشري مضاد، ولقد قص الله علينا ما فيه الكفاية وزيادة من أخبار من تألهوا وتجبروا، كيف صاروا واندثروا ؟!

إن الدين دين الله، والخلق عباده، ومن حقه سبحانه أن يفرض على عباده ما شاء من المسؤوليات، ومن رحمته بهم تقصيدهم وتوجيههم الى مجامع الخير والهدى والفلاح، ومن حق عباده عليه سبحانه النصر والولاية وخلود الذكر في الملأ الأعلى والأسفل، إذا صدقوه في القومة الرشيدة، والعزمة المتبصرة، وحملوا أمانة الدعوة متحلين بأخلاقه «إنا لننصر رسلنا والذين ءامنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار». غافر 52

إن الدين المستجاب له كلّ لايتجزأ، واختزاله واختصاره في الآذان المذاع، وبناء المساجد الصامة المكمّمة، وإحياء المواسم المشبوهة، والعناية بمظاهر الاحتفال بالأعياد، لفتتات على الدين وتعريج له، وتشويه لمبادئه، فالدين : إعلان الخضوع لله تعالى بدون شريك، ولذلك كانت «لا إله إلا الله» شعار الدخول فيه، وكانت بمثابة الأمر اليومي للمسلم، يرددها في الآذان والاقامة وبعد الوضوء وعند النوم والاستيقاظ، معلنا لنفسه ولغيره «أن لا أكبر من الله» في كل شيء، وعلى رأس كل شيء : التشريع المتعبد به.

والدين : النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ومن كبر عن النصح هوى. والدين : النهي عن الفحشاء والمنكر، ومن دعا الى كل ذلك أو بعض ذلك ضل وأضل. والدين : الخضوع لكلمة الحق مهما كانت مرة «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم».

حبس معاوية (ض) العطاء عن الناس ذات مرة، فقام إليه أبو مسلم الخولاني، فقال له : يا معاوية إنه ليس من كدّك، ولا كدّ أبيك، ولا كدّ أمّك. فغضب معاوية ونزل عن المنبر، وقال للناس : مكانكم، وغاب عنهم ساعة، ثم خرج وقد اغتسل، فقال : إن إبا مسلم كلمني بكلام أغضبني، وإني سمعت رسول الله (ص) يقول : «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدهم فليغتسل» وإنما دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم أنه ليس من كدي، ولا كد أبي، فهلموا الى عطائكم ــ الحديث في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (52/5).

وقد جرب اليهود هذا التذبذب، فعاب الله تعالى عليهم هذا المسلك، وتوعدهم عليه بالخزي «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب» البقرة 85.

فالترقيع اتهام ــ ولو ضمنيا ــ للدين بالنقص والقصور والعجز عن مسايرة الحياة المتطورة، وذلك نقض صريح وعملي لما تضمنه القرآن العظيم من تشريعات ومبادىء عزت على البلى.

إن هذا الترقيع هو الذي أبقانا مستقرين على الثرى أشبه ما نكون بالأموات، نعيش بدون رسالة ولا طموح حضاري مشروع، كمصباح معطل، ذهب نوره، وبقي هيكله، ولئن كان فيه من الخداع والدهاء ما يطيل نفسه ويمد في عمره الى حين، فإن المخدوعين سرعان ما يكتشفون الزيف والتضليل، ويعثرون على خيوط التآمر الدنيئة، وآنذاك يضبط المجرمون متلبسين فيحاط بهم، ويقتادون ــ مجردين من كل أسلحة الباطل وعتاده، الى محكمة التاريخ خزايا مرجومين، لاتقبل فيهم شفاعة الشافعين، إن كان هناك من يقبل التشفع في مرتكبي الخيانة العظمى.

إن التهافت على موائد الغرب لأخذ مباذله نستر بها العورة، ونرقع الفتق ــ استرضاء له على حساب ديننا وعزتنا وكرامتنا وخيراتنا ــ سوف لايكسبنا عنده ودا، ولا يضع لنا في قلبه مكانة، إلا مكانة الحمل في قلوب الذئاب المفترسة، «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» البقرة. فمن اشترى رضا الناس برضا الله تعالى لم يفز بشيء، ومن أرضى الله تعالى فاز برضا الله والناس معا.

ثم إن التجريم في الاسلام ليس فوضويا مطلقا عن كل القيود والحدود، ولكنه مضبوط بقواعد استنبطها العلماء من القرآن والسنة والمقاصد العليا للشريعة، حيث حددوا الاجرام بارتكاب المحظورات الشرعية التي زجر الله عنها بحدٍّ أو تعزير أو عقاب أخوي، سواء كانت المحظورات من قبيل الفعل أو الترك، ويتبين من هذا أن الفعل أو الترك لايعتبر جريمة إلا إذا تقررت عليه عقوبة شرعية، وإتيان الكبائر على رأس الجرائم : شرك وسحر ــ وقتل، وأكل للربا ومال اليتيم، وقذف للمحصنات، وشهادة الزور... إلى غير ذلك مما هو مذكور في الكتاب والسنة.

قال العز بن عبد السلام «اذا أردت معرفة الفرق بين الصغائر والكبائر، فاعرض مفاسد الذنب على مفاسد الكبيرة المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر، وإن صارت أدنى مفاسد الكبائر أو أربت عليها فهي من الكبائر، فمن شتم الرب والرسول، أو استهان بالرسل، أو كذب واحد منهم، أو ألقى المصحف في القاذورات... فهذا من الكبائر وإن لم يصرح الشرع بأنه كبيرة» قواعد الأحكام 1ــ12

بناء على التحديد السابق للجريمة الجارحة، والكبيرة المردية، نجد أن ترك الدعوة والأمر بالمعروف جريمة معاقب عليها، وأن إفساح المجال للمنكر ينتفش ويتعاظم ويزهو من أعظم الجرائم الجارحة، أما إذا وصل الأمر إلى حد الأمر بالمنكر وتشجيعه، والنهي عن المعروف والاستهزاء به، فتلك جريمة مسقطة للاعتبار نهائيا، مصنفة أصحابها في عداء الصم البكم من الدواب، ونازلة بهم إلى درك النفاق الذي حدد الله له هذه العقوبة : «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ــ التوبة : 67 و68. وليس بعد التفسيق الالهي تفسيق، ولا بعد لعنته خزي، ولابعد جهنم عقاب أنكى وأذل !!

عجبا لموازين العصر كيف أصبح يوزن بها مكفأة وجوهها، فأطلعت للناس تقديرات مخالفة لما ألفته الانسانية قبل المسخ، فجرح البريء السليم، وبرىء السقيم الضالع في الاجرام.

فينبغي لنا أن نمسخ فطرتنا لتتوافق مع الموازين المقلوبة، وإذ ذاك نتقبل سهولة تجريم كل من ابتلاه الله بنزوة سيف طائش مغرور، امتد للرقاب بجهالة عمياء تيهاء حمقاء، تقتل من تريد، وتسجن من تريد، وتخترع لهم من الألقاب ما تريد. وينبغي لنا كذلك ان نعيد تصنيف وصياغة الموروث والموجود من القيم في الحاسوب المعدل ليفاجئنا بالنتيجة المذهلة. وعلى ضوء التعديل

العصري سنكتشف ــ وياهول مانكتشف ! ــ أن : الامام مالكا مجروح. ألم يضرب ويطف به في الأسواق والطرقات !!؟ وسعيد بن جبير مجروح. ألم يذبح من قفاه !!!؟ والامام احمد بن حنبل مجروح. ألم يضرب بالسياط وسجن زمنا طويلا ؟!!! وابن تيمية مجروح. ألم يلفظ أنفاسه في السجن الذي كان يكتب فيه بالفحم ؟!! وسيد قطب وأمثاله مجروحون. ألم يسحبوا من الدنيا مشنوقين ؟؟... وهكذا كل زوار السجن في ضيافة الرحمان أو المنقولين إلى دار الرضوان مجروحون !!! أما الذين أنعموا عليهم بالسجن أو النقل فهم في ثياب (التعديل والتزكية) يرفلون !!!!

عجبا، كيف تفكرون ؟! وكيف تحكمون ؟؟ «أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟! أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟!! »

رحم الله العِزَّ بن عبد السلام، لو عاش في عصرنا لكان على رأس المجروحين، ولما ظفر بلقب (سلطان العلماء)، ولرأى أن تلك الكبائر التي تكلم عنها سواء كبرت بذاتها أو بأثرها ــ قد صغرت وضؤلت وذوت وانكمشت حتى أصبحت من لطافتها لايرى منها شيء، بفضل الجهل المتعالم، والسفه المتطاول، والتقدم المنكوس.

فحجاب المرأة الذي كان فضيلة أصبح جريمة يعاقب عليه القانون في دولة كانت إلى عهد قريب مركز الخلافة وقلب الأمة النابض، والربا الذي كان محقا للمال أصبح نعمة للمرابين المحللين والعالميين، بها ينعمون على الشعوب والدول الفقيرة بالاستعباد الجديد، والخمر أصبح زين المجالس المفخمة، وسب الله والرسول، والطعن في القرآن والسنة أصبح مفخرة عظيمة، وطريقا سهلا للشهرة والكسب واحتلال أعلى المناصب، وفرسان النغم والتهريج والكرة أصبحوا هم الأبطال، أما حملة القرآن فهم من المنبوذين الأنذال...

ان اختلاف الرؤى والمقاييس والتوجيهات هي أساس التعارض والتجاذب. إذ كيف تلتقي رؤية :

1) من يرى الدعوة قياما بالأمانة وأداءً للمسؤولية، وردا للعبد الآبق الى مولاه رب العزة. ومن يراها لعبة سياسية يسعى أصحابها للمنصب والحكم في التواء.

2) من يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظ للأمة من البلاء المادي والمعنوي، ومن يرى ذلك رجعية وتطرفا (وظلامية) ؟

3) من يرى أن القرآن هو دستور الأمة لاصوت يعلو فوق صوته، ولاحكم يعلو فوق حكمه، ومن يرى الدستور والقانون والأشخاص والأحزاب فوق القرآن ؟.

4) من يرى أن الأمن الحقيقي يوجد بين أحضان أخوة اسلامية لاتفرق بين غني وفقير، وحاكم ومحكوم. ومن يرى أن الأمن يوجد بين أحضان حديدية لوزراء الداخلية، أو بين أحضان ضباط أغرار لافقه لهم في دين ولاسياسة ؟

5) من يرى أن الاعتماد أولا وأخيرا على الله ناصر المستضعفين، ومن يرى أن الاعتماد الكلي يجب أن يكون على أعداء الاسلام، فيهم الثقة الكاملة، وبهم تتحقق العزة القاهرة، أما الأمة فلاثقة فيها، ولاتستحق إلا السحق والاذلال ؟.

الأمل في الله تعالى قوي، والثقة بنصره وإظهار دينه لاتتزعزع، وإحسان الظن بالمتجاذبين جميعا خلق إسلامي أصيل، ومع ذلك فالأمر خطير جدا، وخطورته تكمن في أن الكثير والكثير جدا من أفراد الأمة الذين يحملون ذهنية القطيع، ولم يرزقهم الله حسن فهم ولا إدراك للمخاطر المحيطة بعنق الأمة، لايفرقون بين من يحمل الفأس للبناء وبين من يحملها للهدم، فالكل في نظر هؤلاء يسعى لتحقيق مصلحته الخاصة من منظوره الخاص، وهؤلاء أكبر عون لاطالة مدة التخلف والاستنزاف والاسترزاق، ولا علاج لهؤلاء إلا بتوفير جو صحي معقم، يتلقون فيه بكثافة حقن المبادىء الاسلامية المطهرة من خلفيات الدعاية والتكسب والارتزاق، على يد أساة وقفوا أنفسهم لخدمة هذا الدين وتحقيق المصلحة العليا للأمة. فعسى أن يتدارك المقدرون للمسؤولية الخطر الكامن من وراء الجهل والتجهيل، فيبادروا إلى فتح الأبواب أمام كل من يحمل عزما وعلما وفهما وتقوى وغيرة.

وبذلك تتوحد الأهداف والرؤى، وتتشابك القلوب والأيدي، وتتصافى الصدور وتترابط برباط المحبة والثقة والأخوة.

الهدى

مع كتاب الله عز وجل

مفاهيم العدل والظلم في القرآن الكريم (2)

للأستاذ مصطفى بن الشيخ فضيل

ثانيا : عدل الانسان

إن القرآن الكريم جاء بالمنهج القويم الذي تستقيم به الحياة البشرية وتتحقق به العدالة في حياة الانسان كما هي متحققة في الكون.

ولا شك أن الذي أقام هذا الكون الهائل على العدل، هو القادر على تحقيق تلك العدالة في الحياة البشرية «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» (14. الملك). غير أن الله سبحانه وتعالى قد كرم الانسان بالتمييز والاختيار، فدله — برحمته وفضله — على السبيل المؤدي الى تحقيق تلك العدالة. ولقد مر بنا أن العدل صفة مستحسنة لدى العقل، ولكن هذا العدل — مهما كان العقل الذي يستحسنه ويسعى لتحقيقه لايرقى الى مقام العدل القرآني المرتكز على علم الله الكامل وقدرته المطلقة، ومن ثم قال الامام الرازي في تفسير «العزيز الحكيم» من قوله تعالى : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط، لاإله إلا هو العزيز الحكيم» (18 — آل عمران). قال :

«فالعزيز إشارة الى كمال القدرة، والحكيم إشارة الى كمال العلم، وهما الصفات اللتان يمتنع حصول الالهية إلا معهما، لأن كونه قائما بالقسط لايتم إلا إذا كان عالما بمقادير الحاجات وكان قادرا على تحصيل المهمات» (1).

فعدالة الانسان متوقفة على الاهتداء بتعاليم القرآن الكريم وأحكامه العادلة، لأن الذي أنزله هو العزيز الحكيم، وإلا ستكون عدالة شكلية جزئية مفتقرة الى الدقة والشمول. ذلك ان كتاب الله تعالى يكسب العقل مفهوما واسعا عن العدل، فتتسع نظرته الى الأشياء والأشخاص والأمم ويرى أنها كلها مواطن قابلة لتحقيق العدالة فيها، بل ومطلوب إقامة العدل فيها على المستوى الرفيع.

وإلى هذا المعنى أشار قوله جلت قدرته : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط... » الآية (25 — الحديد). وإنها لتدل فيما تدل عليه — أن من أهداف الرسالات إقامة القسط في الحياة الانسانية. والآية واضحة الدلالة عن أن إقامة العدل في حياة البشر متوقفة على اتباع الرسل فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به — يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : «كل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس، ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والرجاء، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة وتصادم المصالح والمنافع، ميزانا لايحابي أحدا لأنه

إن القرآن الكريم عندما يعرض لمفهوم العدل الذي ينبغي أن يقيمه الناس في حياتهم، يعرضه على أساليب متعددة تدل على الحيز الكبير الذي يشغله في بنية الاسلام، وعلى خطورته كغرض من الأغراض القرآنية الأولية والرئيسية.

يزن بالحق الالهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع» (2).

وإلى ذلك المعنى أيضا أشارت الآيات الكريمة : «والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» (5 — 6 — 7 الرحمن) قال ابن كثير : «أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل» (3). ولقد أحسن سيد قطب في تفسيره لهذه الآية حيث اقتبس بعضا من ظلالها الوارفة يقول : «الى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة «وضع الميزان» ميزان الحق، وضعه ثابتا راسخا مستقرا. وضعه لتقدير القيم، قيم الأشخاص والأحداث والأشياء كي لايختل تقويمها ولا يضطرب وزنها ولا تتبع الجهل والغرض والهوى، وضعه في الفطرة ووضعه في هذا المنهج الالهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن.

وضع الميزان «ألا تطغوا في الميزان» فتغالوا وتفرطوا «وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» ومن ثم يستقر الوزن بالقسط بلا طغيان ولا خسران» (4).

فلا شك إذن في وجوب العدل وكونه مفروضا على الناس !

إن القرآن الكريم عندما يعرض لمفهوم العدل الذي ينبغي أن يقيمه الناس في حياتهم، يعرضه على أساليب متعددة تدل على الحيز الكبير الذي يشغله في بنية الاسلام، وعلى خطورته كغرض من الأغراض القرآنية الأولية والرئيسية.

فبينما نراه يبين أن العدل من صفات الله عز وجل وأن الخلق قائم على القسط وأن أحكام الله تعالى جارية على العدالة، نراه في جهات أخرى يبين حسن هذه الصفة عموما بما يجعلها محبوبة لدى العقلاء، فيسعون الى تحقيقها على حسب مستواهم البشري مسترشدين في ذلك بالعدالة القرآنية.

غير أن ذلك البيان لانجده مجردا عن الالزام، حتى لايظن أن العدل من الأخلاق المندوبة، وإنما جاء البيان مصحوبا بالأمر الملزم الذي لايحتمل تجاوزا. وهكذا تأتي الآيات لتؤكد ذلك المعنى في وضوح وجلاء :

1 — فأخبر تعالى في نفسه أنه يأمر بالعدل في قوله عز وجل : «إن الله يأمر بالعدل والاحسان... (الآية : 90 — النحل).

2 — وأخبر عن الأمر بالعدل على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : «وأمرت لأعدل بينكم» (13 — الشورى).

3 — وكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخبار عن أن الله تعالى أمر بالقسط «قل أمر ربي بالقسط» (29 — الأعراف).

ويقول سيد قطب : «أمر الله بالعدل والاعتدال في الأمور كلها، لا بالفحش والتجاوز، وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر والاستمداد مما جاء في كتابه على رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يجعل المسألة فوضى» (5).

4 — «وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم» (76 — النحل).

5 — واستقبح جريمة قتل الذين يأمرون بالقسط حيث ذكرها بعد جريمتي الكفر وقتل الأنبياء، ثم توعد أصحابها بالعذاب الأليم. «إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم» (21 — آل عمران).

6 — وأخيرا يأتي الأمر المباشر على صيغة المبالغة. فيقول تعالى : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما... «الآية (135 — النساء). فقوله تعالى : «كونوا قوامين بالقسط» بناء مبالغة أي ليتكرر منكم القيام بالقسط (6). وقال ابن كثير في تفسيرها : «يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل فلا يعدلوا عنه يمينا وشمالا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه» (7) فهذه مجموعة من الآيات دلت دلالة قوية قاطعة على وجوب العدل وأن الناس مأمورون بإقامته في حياتهم.

إلا أن القرآن الكريم لايكتفي بأمر الناس بالعدل ثم يترك لهم وضع حدوده وأبعاده. ولو كانت نياتهم صالحة —، وإنما يتكفل هو نفسه بوضع تلك الأبعاد والحدود بعد أن يؤمن به أولئك الناس ويستسلموا لأحكامه العادلة.

وهكذا يجعل القرآن الكريم من الطائفة المؤمنة أمة عادلة تجاه الأمم الأخرى، ويقرر العدالة بينهم وبين إمامهم، وبينهم وبين قاضيهم، وبينهم وبين بعضهم البعض، بل بينهم وبين أنفسهم التي بين جنوبهم. وفيما يلي بيان ذلك بالتفصيل :

وإنه لقسط وعدل أن يدعى الولد لأبيه، عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية. وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه، يرثه، ويتعاون معه ويكون امتدادا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده.

فعدالة الانسان متوقفة على الاهتداء بتعاليم القرآن الكريم وأحكامه العادلة، لأن الذي أنزله هو العزيز الحكيم، وإلا ستكون عدالة شكلية جزئية مفتقرة إلى الدقة والشمول. ذلك أن كتاب الله تعالى يكسب العقل مفهوما واسعا عن العدل، فتتسع نظرته إلى الأشياء والأشخاص والأمم ويرى أنها كلها مواطن قابلة لتحقيق العدالة فيها، بل ومطلوب إقامة العدل فيها على المستوى الرفيع.

عدل الأمة الاسلامية

مقدمة

إن الأمة الاسلامية التي آمنت بالقرآن الكريم واتبعت منهجه القويم، والتزمت بأحكامه العادلة صارت بالبداهة أعدل الأمم مما يؤهلها لقيادة الانسانية وإقامة القسط والشهادة على الناس. وهذا بعض ما أشارت إليه الآية الكريمة : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» (143، البقرة). يقول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا الشأن : «من معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة، ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها : العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلا فإن شهادته مردودة مرفوضة، أما الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضي بين كافة الناس. وتفسير الوسط في الآية بالعدل مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم. فقد روى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الوسط هنا بالعدل» (8).

وقال الفيروزبادي : الوسط من كل شيء : أعدهُ (9).

وهذه آية أخرى تؤكد هذه الصفة للأمة الاسلامية، قال تعالى : «وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» (181 — الأعراف). قال القرطبي : «في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «هم هذه الأمة — أي الأمة الاسلامية —، وروي أنه قال : «هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها» وقرأ هذه الآية وقال : «إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم». فدلت الآية على أن الله عز وجل لايخلي الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو الى الحق» (10).

ويقول الشهيد سيد قطب في تفسيره لهذه الآية : «إن صفة هذه الأمة التي لاينقطع وجودها من الأرض أيا كان عددها، أنهم «يهدون بالحق» فهم دعاة إلى الحق... «وبه يعدلون»... فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به الى تحقيق هذا الحق في حياة الناس والحكم به بينهم تحقيقا للعدل الذي لايقوم إلا بالحكم بهذا الحق» (11).

وهكذا نستدل بهاتين الآيتين وغيرهما — مما سنراه فيما بعد إن شاء الله تعالى — على أن الأمة الاسلامية أمة عادلة سواء في سياستها الخارجية أو الداخلية. وبتعبير آخر، هي عادلة في ذاتها ومع غيرها من الأمم. وعدلها في ذاتها يشمل عدل الحاكم مع رعيته والقاضي مع المتحاكمين وعامة المسلمين فيما بينهم والكلام في ذلك نؤجله الى حينه في الفصل التالي بإذن الله تعالى.

أما في هذا الفصل فنقتصر على عرض السياسة العادلة للأمة الاسلامية في علاقتها مع الأمم الأخرى. فأقول وبالله التوفيق.

أولا : السياسة الخارجية

إن منهج هذا البحث يفرض علينا الاقتصار على ألفاظ العدل المتقاربة واستعراض المفاهيم التي دلت عليها، وذلك الاقتصار لايسمح لنا بعرض السياسة الخارجية للأمة الاسلامية على الوجه الأكمل، ما دامت في القرآن الكريم صيغ وألفاظ أخرى دلت على تلك المفاهيم بطرق أخرى وناقشتها من زوايا متعددة. ومن ثم نقتصر على ما يسر الله الاطلاع عليه من الآيات التي وردت فيها تلك الألفاظ المتقاربة في الدلالة على مفهوم العدل عسانا نستخلص خطوطا عريضة لتلك السياسة.

وسياسة الأمة الاسلامية الخارجية تتنوع بين حالتين من حيث السلم والحرب، ولكن العدل حاضر في كليهما.

1 — في حالة السلم :

أ — الحوار : إننا نلمس هذا الخط العريض للسياسة الخارجية بالنسبة لأمة الاسلام وذلك من خلال قوله تعالى : «قل يا أهل

الكتاب تعالوا الى **كلمة سواء** (12) بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون» (64 — آل عمران). إن القرآن الكريم جاء لهداية البشر الى الحق، ومن أجل تحقيق هذا الهدف نهج عدة طرق وأساليب. وأول هذه الطرق يتمثل في الدعوة المبنية على الحوار المرتكز على أسس عادلة وموازين سليمة. يسلم بها العقل ويطمئن إليها القلب.

ب — حسن المعاملة مع المسلمين : يقول الله تعالى : «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» (8 — الممتحنة). يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية : «إن الاسلام دين سلام وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين، وليس هناك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله. فأما إذا سالموهم فليس الاسلام براغب في الخصومة ولا متطوع بها كذلك ! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع، ولا ييأس الاسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس فتتجه هذا الاتجاه المستقيم.

وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته الى الحياة الانسانية. بل نظرته الكلية لهذا الوجود الصادر على إله واحد، المتوجه الى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي من وراء كل اختلاف وتنويع.

وهي أساس شريعته الدولية، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة، لايغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده أو خوف الخيانة بعد المعاهدة وهي تهديد بالاعتداء، أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وهو كذلك اعتداء، وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين» (13).

2 — في حالة الحرب : لما كان أهل الباطل المتعنتون لايرتكزون في مذاهبهم على البراهين السليمة ولا يقبلون الحوار، وإذا قبلوه لايصمدون أمام الحق فإنهم يلجؤون الى الحرب باعتبارها الوسيلة المتبقية للحفاظ على زعامتهم وقيادتهم المبنية عى أهوائهم وشهواتهم. فإذا لم يستطيعوا فإنهم يسالمون أهل الحق عبر عهود مؤقتة كحيلة للوقيعة بهم.

وهكذا يكون كل سبب للحرب العدوانية ونقض العهود كافيا لأن يكون رد أهل الحق قائما على العدل.

ولما كان الآيات التي ناقشت مشروعية الحرب الاسلامية قد ورد فيها التعبير عن العدل ينهي المسلمين عن الاعتداء، والاعتداء من الألفاظ الدالة على الظلم، فإنا نؤجلها الى حينها بإذن الله تعالى. وأما موقف أهل الحق من نقض العهود ففية هنا — كلام.

مقابلة نقض العهد بنقض مثله : يقول الله تعالى : «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لايحب الخائنين» (58 — الانفال).

لقد استنبط العلماء من هذه الآية معاني جليلة نعرضها فيما يلي :

يقول الشيخ السيد سابق : «إذا علم الحاكم الخيانة ممن كان بينهم وبين المسلمين عهد فإنه لاتحل محاربتهم إلا بعد إعلامهم بنبذ العهد، وبلوغ خبره الى القريب والبعيد حتى لايؤخذوا على غرة. يقول الله سبحانه في سورة الأنفال : «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لايحب الخائنين» (58 — الانفال).

وقاعدة الاسلام : «وفاء بغدر خير من غدر بغدر». قال محمد بن الحسن في كتاب السير الكبير : «لو بعث أمير المسلمين الى ملك الأعداء من يخبره بنبذ العهد عند تحقق سببه، لاينبغي للمسلمين أن يغيروا عليهم. وعلى أطراف مملكتهم ءهم غرة، ومع ذلك إذا علم المسلمون يقينا أن القوم لم يأتهم خبر من قبل ملكهم فالمستحب لهم أن لايغيروا عليهم حتى يعلموهم بالنبذ، لأن هذا شبيه بالخديعة. وكما على المسلمين أن يتحرزوا من الخديعة عليهم أن يتحرزوا من شبه الخديعة» (14).

يقول الأستاذ سيد قطب : «إن الاسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانة، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارخ الآخرين بأنه نقض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان وبذلك يرتفع الاسلام بالبشرية الى آفاق من الشرق والاستقامة، والى آفاق من الأمن والطمأنينة... إنه لايبيت الاخرين بالهجوم الغاذر الفاجر وهم آمنون ومطمئنون الى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم... فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة، لأن كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به، إنما هو غافل ! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة» ! (15).

ثانيا : السياسة الداخلية : وتتوزع على ثلاثة مستويات. مستوى الحكم والقضاء والمستوى الأجتماعي والمستوى الاقتصادي.

1 — مستوى الحكم والقضاء : لقد وردت عدة آيات تأمر بالعدل في الحكم والقضاء وتنبه المسلمين الى أن ذلك العدل متوقف على تحكيم شرع الله سبحانه وتعالى، وتحذرهم من اتباع

الهوى لأنه سبب الضلال وحصول الظلم، يقول الله تعالى مخاطبا نبيه داود عليه وعلى نبينا السلام : «ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» (26 — ص).

قال ابن كثير رحمه الله : «هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيظلوا عن سبيل الله وقد توعد تبارك وتعالى من ظل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعد الأكيد والعذاب الشديد» (16).

ويقول الله سبحانه وتعالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم مبه، إن الله كان سميعا بصيرا» (58 — النساء).

قال القرطبي : «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»... هذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق... قال صلى الله عليه وسلم : «إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا «وقال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». فجعل في هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكاما على مراتبهم وكذلك العالم الحاكم، لأنه إذا أفتى حكم وقضى وفصل بين الحلال والحرام، والفرض والندب، والصحة والفساد، فجميع ذلك أمانة تؤدى وحكم يقضى» (17).

وإذا كان بعض المتحاكمين ليسوا مسلمين فإن ذلك لايمنع من الحكم بالعدل، بل إن العدل مطلوب في الحكم بين الناس عموما على اختلاف مذاهبهم. يقول الله تعالى : «ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون» (9 — المائدة).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : «أي لايحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقا كان أوعدوا، ولهذا قال «اعدلوا هو أقرب للتقوى» أي عدلكم أقرب للتقوى من تركه» (8).

بل أننا نجد الأمر بالعدل مع غير المسلمين واضحا في قوله تعالى : «فلذلك فادع، واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لاحجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير» (15 — الشورى).

وقال تعالى في شأن اليهود : «سماعون للكذب أكّالون للسحت، فإن جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط (19)، إن الله يحب المقسطين». (42 — المائدة).

ولما كانت الشهادة من أهم الركائز التي يرتكز عليها الحاكم والقاضي في حكمهما، فإن القرآن الكريم قد أولاها عناية كبيرة ووضع لها الضوابط الشرعية حتى لاتكون فوضى وفرصة للتحايل على القضاء. فالله تعالى يقول : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآن قوم على ألا تعدلوا... الآية» (8 : المائدة) وفي تفسير هذه الآية يقول القرطبي : «أي كونوا قوامين لله، أي لأجل ثواب الله، فقوموا بحقه، واشهدوا بالحق من غير ميل إلى أقاربكم وحيف على أعدائكم» (20).

ويقول الله عز وجل : «وإذا قلتم فاعدلوا»... (بعض من الآية 152 — الأنعام). قال بن كثير في تفسير هذه الآية : إنها كقوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) الآية، وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعل والمقال على القريب، والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال» (21).

وهكذا يصبح المسلم الذي يستجيب لهذا النداء والأمر الالهي، عدلا يرضى الناس بشهادته، فقد عرف بينهم بعدم التحيز مادامت تزكت نفسه الى الحد الذي يشهد فيه بالعدل والحق على ذويه وأقاربه، وهكذا جاء في القرآن الكريم ذكر هذه النماذج البشرية الصالحة وكأنه بذلك يعرض على المسلمين هذا المركز الرفيع الذي يصبح فيه الرجل عدلا محبوبا بين الناس مقبول الشهادة، ويعرض الطريق الموصلة إليه، أي أن المسلمين كلهم باستطاعتهم — إذا استجابوا لنداء القرآن — أن يصبحوا عدولا.

وقد وردت في القرآن الكريم بعض النماذج من القضايا التي يحتاج فيها الى الشهود وهي من القضايا الخطيرة التي تتعلق بحفظ الأنساب وحفظ الأموال :

أ — يقول الله سبحانه وتعالى : «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لاتخرجوهن من بيوتهن، ولا يخرجن إلا أن ياتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لاتدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، فإذا بلغن أجلهن، فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله، ذلكم

يوعظ به من كان يومن بالله واليوم الآخر، ومن يتق الله يجعل له مخرجا... الآيات (1 ـ 2. الطلاق).

يقول الأستاذ سيد قطب : «في حالتي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك، شهادة اثنين من العدول، قطعا للريبة، فقد يعلم الناس بالطلاق ولايعلمون بالرجعة فتثور شكوك وتقال أقاويل. والاسلام يريد النصاعة والطهارة في هذه العلاقات وضمائر الناس وألسنتهم على السواء. والرجعة تتم وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها، ولكن الاجماع أن لابد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين» (22).

ب ـ ويقول سبحانه وتعالى : «يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم، أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت...» (الآيات 106 ـ 107 ـ 108 المائدة).

2 ـ المستوى الاجتماعي :

إن التنظيم القرآني للحياة الاجتماعية بالنسبة للأمة الاسلامية قائم على العدالة حفظا للمسار السليم لتلك الحياة. ومن ثم فقد وضع الضوابط الواقية من التصدع والاختلال في المجتمع الاسلامي، ووضع العلاج لما قد يحدث من مشاكل اجتماعية باعتبار المجتمع الاسلامي مجتمعا بشريا، ولكن الضوابط والحلول التي يضعها القرآن الكريم ـ نظرا لعدالتها تستطيع أن ترتقي بالمجتمع الى أعلى درجات الكمال على المستوى البشري.

أ ـ العدل في الاصلاح بين المتخاصمين :

يقول الله تعالى : «وإن طائفتان من المومنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين». (9 ـ الحجرات).

يقول الأستاذ سيد قطب : «سواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات، أم كان ترشيعا لتلافي مثل هذه الحالة، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الاسلامية من التفكك والتفرق، ثم لاقرار الحق والعدل والصلاح، والارتكان في هذا كله الى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح.» (23).

ب ـ العدل في اليتامى :

والقرآن الكريم يهتم بكافة أصناف الناس في المجتمع الاسلامي من حيث العدالة خاصة مع النساء واليتامى، ولا شك في كونهم من الضعفاء.

يقول الله عز وجل : «يستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهم وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الوالدان، أو تقوموا لليتامى بالقسط، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما» (127 ـ النساء).

فقوله تعالى : «وأن تقوموا لليتامى بالقسط» قال ابن كثير ثقلا عن سعيد بن جبير : «كما إذا كانت ذات جمال ومال فنكحتها واستأثرت بها كذلك إذا لم تكن ذات مال وجمال فانكحها واستأثر بها» (24).

ج ـ العدل في النساء :

ويقول الله سبحانه وتعالى : «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» (3 ـ النساء).

يقول الدكتور يوسف القرضاوي : «الله تعالى أذن في تعدد الزوجات بشرط الثقة بالعدل، ثم بين العدل المطلوب في نفس السورة حيث قال : «ولن تسطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» (129 ـ النساء). فهذه الآية تبين أن العدل المطلق الكامل بين النساء غير مستطاع بمقتضى طبيعة البشر، لأن العدل الكامل يقتضي المساواة بينهن في كل شيء في ميل القلب، وشهوة الجنس، وهذا ليس في يد الانسان، فهو يحب واحدة أكثر من أخرى، ويميل الى هذه أكثر من تلك، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء. ومن ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد أن يقسم بين نسائه في الأمور الظاهرة من النفقة والكسوة والمبيت : «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تأخذني فيما تملك ولا أملك» يعني أمر القلب.

فأمر القلب هذا هو الذي لايسطاع العدل فيه، وهو في موقع العفو من الله تعالى، فإن الله جل جلاله لا يؤاخذ الانسان فيما لاقدرة له عليه ولا طاقة له به. ولهذا قالت الآية الكريمة، قوله : «ولن تسطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» (129 ـ النساء) ومفهوم الآية أن بعض الميل مغتفر، وهو الميل العاطفي» (25).

د ـ العدل في إثبات النسب الأصلي لأولاد المسلمين :

ثم إن القرآن الكريم يأمر بحفظ الأسر وأفرادها من الاختلال واختلاط الأنساب وضياع أصولها، وهذا عدل لأنه وضع كل شيء

في موضعه كما يقول الشهيد سيد قطب في تفسير قوله تعالى : «ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم، وما جعل أدعيائكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ادعوهم لآباءهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما» (5.4 الأحزاب).

يقول السيد قطب : «وإنه لقسطىعدل أن يدعى الولد لابيه، عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية. وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه، يرثه، ويتعاوه معه ويكون امتدادا له بوراثاته الكامنة، وتمثيله لخصائصه وخصائص آبائه وأجداده، وعدل للحق ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه، ويقيم كل علاقة على أصلها الفطري، ولا يضيع مزية على والد ولا ولد، كما أنه لايحمل غير الوالد الحقيقي تبعة البنوة، ولا يعطيه مزاياها، ولا يحمل غير الولد الحقيقي تبعة البنوة ولا يُحابيه بخيراتها !

3 ـــ المستوى الاقتصادي :

إن أبرز مظاهر الاقتصاد هو التعامل بين الناس بيعا وشراء على مستوى جميع الأموال والأشياء، والقرآن الكريم يأمر بضبط ذلك التعامل على الناس من العدالة، حتى لايحدث التظالم بين الناس وأكل الأموال بالباطل.

فلقد أمر الله سبحانه وتعالى بضبط موازين التعامل وجعلها مستقيمة فقال عز وجل : «والسماء رفعها ووضع الميزان، ألّا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان» (7 ـــ 8 ـــ 9 الرحمن) وقال عز وجل : «وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا» (35 ـــ الاسراء) يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي :

«يأمر الله عز وجل في هذه الآية بتحقيق مظهر من أبرز مظاهر العدل وأهمها وهو العدل في الكيل والوزن بين المتبايعين... ينبههم الى أن ذلك خير لهم وأحسن عاقبة ونتيجة، أي لايغزنكم الربح العاجل الذي تجنونه من وراء التلاعب بالكيل أو الوزن فإنه شيء موقوت، وسرعان ما ينقلب الربح الى خسارة وبلاء وفي ذلك إشارة الى جانب من المحكمة العظيمة المتعلقة بهذا الحكم. فهو سبحانه وتعالى ينبهنا الى أن الظلم في المعاملة التجارية قد يعقبه بعض الربح، وقد يكون ذلك دافعا صاحبه الى الامعان في ظلمه أو خداعه، بيد أنه سرعان ما يعرف بين الناس بذلك ويجعل الله تعالى من عادته تلك مظهرا يتلبسه فيعرف به بين عامة أهل السوق ورواده. فينقلب عليه الحال ويتحول ذلك الربح الجزئي السريع الى خسارة كلية دائمة. فذلك هو معنى قوله عز وجل : ذلك خير وأحسن تأويلا.

وحكمة أخرى من وراء هذا الأمر الارشادي الخطير. هي أن سلامة التعامل بين المسلمين تعتبر المهيء الطبيعي الأول لقيام حقيقة التضامن والتآلف فيما بينهم، فبقدر ما يشيع بينهم من مظاهر العدل في المعاملات والمبايعات اليومية الدائرة بينهم يشيع بينهم في أعقاب ذلك معنى التماسك والتآلف والاتحاد. وسوء التعامل بين المسلمين يعتبر المهيء الطبيعي الأول لقيام مظاهر الشقاق والبغضاء فيما بينهم. وبقدر ما يشيع بينهم من التظالم في المعاملات التجارية المتعلقة بالناس وأسباب عيشهم، يشيع بينهم التهارج والتخاصم والشقاق (26) غير أنه من رحمة الله الكريم، لم يكلف الانسان بما لايطيقه في مراعاة الدقة في الوزن وإنما أمره الله تعالى أن يسلك طريق العدل في الميزان ما استطاع الى ذلك سبيلا : يقول الله تعالى : «وأوفوا الكيل والميزان، ولا نكلف نفسا إلا وسعها» (بعض من آية 152 ـــ سورة الانعام).

يقول القرطبي : «لانكلف نفسا إلا وسعها «أي طاقتها في إيقاع الكيل والوزن وهذا يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع

إن سلامة التعامل بين المسلمين تعتبر المهيء الأول لقيام حقيقة التضامن والتآلف فيما بينهم، فبقدر ما يشيع بينهم من مظاهر العدل في المعاملات والمبايعات اليومية الدائرة بينهم يشيع بينهم في أعقاب ذلك معنى التماسك والتآلف والاتحاد. وسوء التعامل بين المسلمين يعتبر المهيء الطبيعي الأول لقيام مظاهر الشقاق والبغضاء فيما بينهم. وبقدر ما يشيع بينهمْ من التظالم في المعاملات التجارية المتعلقة بالناس وأسباب عيشهم، يشيع بينهم التهارج والتخاصم والشقاق.

تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، وما يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمعفو عنه»

وتبعا للمنهج التربوي الذي جاء به القران الكريم في تقويم النفس والمجتمع، فقد ذكر لنا الله تعالى فيه قصة إحدى الأمم الغابرة كانت تخسر الميزان وتبتعد عن سبيل العدل فيه ولا تتورع عن أكل أموال الناس بالباطل، فأرسل الله عز وجل إليهم نبيه شعيبا فأمرهم ونهاهم، ونترك الشهيد سيد قطب يحلق بنا في أجواء طرف من قصة هذا النبي مع قومه. يقول :

«بدأهم شعيب بما بدم به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم :

«وأوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين» (181 — 82 — 83 — الشعراء) وقد كان شأنهم كما ذكر في سورتي الأعراف وهود — أن يطففوا في الميزان والمكيال، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائدا عن حقهم، ويعطوا أقل من حق الناس، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع، ويبدو أنهم كانوا في ممر قوافل التجارة فكانوا يتحكمون فيها. وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة. ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات الناس» (28).

(يتبع)

الهوامش

(1) مفاتيح الغيب. للرازي ص : 221. ج. 7
(2) في ظلال القرآن. ص : 3494. ج : 6
(3) تفسير القرآن العظم. ص : 271. ج : 4
(4) المصدر السابق. ص : 3449. 50. ج : 6
(5) في ظلال القرآن. ص : 1281. ج : 3
(6) القرطبي. ص : 410. ج : 5
(7) تفسير القرآن العظيم. ص : 566. ج : 1.
(8) الخصائص العامة للاسلام — يوسف القرضاوي — الطبعة الأولى — نشر مكتبة وهبة — ص : 123. والحديث الذي رواه الامام أحمد يضاف الى أحاديث أخرى — تفسر الوسط بالعدل — رواها البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة، وقد أورد. كل ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره. ص : 191. ج : 1
(9) بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز — وسط
(10) الجامع لأحكام القرآن. ص : 329. ج : 7
(11) في ظلال القرآن. ص : 1403. ج : 3.
(12) قال ابن كثير في تفسيره. ص : 372. ج : 1. «أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها».
(13) في ظلال القرآن. ص : 3544 — 45. ج : 6
(14) فقه السنة — سيد سابق. ص : 102. ج : 3 (الطبعة الثالثة — دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت)
(15) في ظلال القرآن ص : 1542. ج : 3
(16) تفسير القرآن العظيم. ص : 33. ج : 5
(17) الجامع لأحكام القرآن. ص : 258. ج : 5
(18) المصدر السابق. ص : 31. ج : 2 وقال القرطبي : «دلت الاية على أن كفر الكافر لايمنع من العدل عليه وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لايصال الغم والحزن إليهم» الجامع لأحكام القرآن. ص : 110 — ج : 6
(19) قال ابن كثير : «أي بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل» تفسر القرآن العظم. ص : 61. ج : 2.
في الآية السابقة : «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله» (135 — النساء)
(20) الجامع لأحكام القرآن. ص : 109. ج : 6
(21) المصدر السابق. ص : 191. ج : 2
في الحديث : «المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».
(22) في ظلال القرآن. ص : 3601. ج : 6
(23) في ظلال القرآن. ص : 3343. ج : 6
(24) تفسير القرآن العظم. ص : 562. ج : 1
(25) في ظلال القرآن. ص : 2325. ج : 5
(26) من أسرار المنهج الرباني — مكتبة الفارابي الطبعة الثالثة (1397 — 1977).
(27) الجامع لأحكام القرآن ص : 136. ج : 7
(28) في ظلال القرآن. ص : 2615. ج : 5

نشرت الحلقة الأولى من هذا البحث في العدد 19 — أكتوبر 1988، ص ص : 5 — 12.

ملف التربية

- 1 -

فلسفة التربية الاسلامية

الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

مقدمة :

في أوقات التخلف والهزائم التي تمر بها الامم يبدأ الخبراء جهودهم في البحث عن الاسباب بفحص النظم التربوية القائمة. والقاعدة في ذلك أن التقدم والتخلف يبدءان في ميدان الفكر والارادة ثم ينتشران في ميادين الحياة المختلفة.

لقد احس الفكر الاسلامي الحديث بهذه المشكلة حين بدأ القول ان انحطاط العالم الاسلامي وتخلفه يكمنان في انحرافه عن الاسلام وان العودة الى الاسلام هي العلاج الشافي من هذا الانحطاط والتخلف. ومن الواضح ان مثل هذه المقولات تبقى في مرحلة «الاحساس بالمشكلة» ولا تتعداها الى مرحلة «تحديد المشكلة» و «جمع المعلومات» و «تحليلها» و«استخلاص النتائج» كما تقرر خطوات البحث العلمي. ذلك ان البعد عن الاسلام سببه عجز النظم التربوية القائمة في العالم الاسلامي. فالاسلام ليس وجبة نتناولها أو ثوبا نرتديه أو قرص علاج نبلعه وانما هو أفهام ومشاعر وأعمال تحتاج الى ان تتبلور على يد حكماء في التربية ثم تنمو وتتجسد في حياة الافراد والجماعات على يد مربين ومؤسسات مؤهلة قادرة.

وفي السنوات الاخيرة اقترب الباحثون الاسلاميون من «تحديد المشكلة» حين بدأ القول إنّ مشكلة العالم الاسلامي تتحدد في نظم التربية القائمة فيه، ثم تلا ذلك لقاءات جماعية لدراسة هذه المشكلة، ومن هذه اللقاءات مؤتمر التعليم الاسلامي الاول في مكة عام 1397 ه وما تلاه من مؤتمرات وتطبيقات في بعض معاهد ونظم التربية القائمة.

غير ان تحليل الوثائق والابحاث التي افرزتها هذه المؤتمرات والتطبيقات يكشف عن ان الجهود التي بذلت وقفت عند أمرين اثنين: الاول : ـــ الوقوف عند التعليمات النظرية والاقتصار على الاشادة بمزايا التربية الاسلامية ودورها في إخراج السلف الصالح. والثاني : الاقتصار على البحث في التربية الاسلامية ـــ كتراث ـــ لعب دوره في الماضي دون التطرق الى البحث في دور التربية الاسلامية ـــ كرسالة ـــ لمواجهة حاجات الحاضر والمستقبل.

ولذلك مازالت الحاجة قائمة لمزيد من البحث بغية تحديد أمرين اثنين: الاول ـــ تقديم التربية الاسلامية ـــ كرسالة ـــ لمواجهة تحديات العالم الاسلامي المعاصر وتلبية حاجاته وتطلعاته المستقبلية. والثاني: ابراز التفاصيل والتطبيقات التربوية المتخصصة لهذه التربية مثل الاصول والجوانب التطبيقية العملية التي تحتاج اليها نظم التربية المعاصرة في العالم الاسلامي والتي تعيش في هذا الجانب عالة على النظم التربوية الاجنبية والمستوردات التي تحملها معها افواج البعوث والخبراء الوافدة اليه من الخارج.

ان الدعوة التي يحملها «المعهد العالمي للفكر الاسلامي» والتي عبر عنها الشهيد المرحوم الدكتور اسماعيل الفاروقي في رسالته «أسلمة المعرفة» وعبر عنها كذلك رفيق دربه الاخ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان في رسالته «خطة العمل» هي دعوة هامة لتخطو الى الامام الخطوات المنشودة على طريق تلبية حاجات الحاضر والمستقبل.

اهمية الدراسة:

ان البحث في أصول التربية الاسلامية امر هام جدا. وتزداد اهميته ازاء المشكلات التربوية التي يعاني منها العالم الاسلامي. والمحور الرئيسي في هذه المشكلات هو ان نظم التربية القائمة ـــ رغم كثرة المختصين ـــ مازالت في طور تقليد الفروع سواء أكان

تقليد الماضي أو تقليد الحديث المستورد، يصاحبه جهل بالاصول التي انبثقت عنها هذه الفروع والتطبيقات. ان الجهل بأصول ونظم التربية التي تحدرت الينا من الماضي أو تلك التي نستوردها من الخارج يبقيها في دوامة الخلط والتخبط والاكتفاء بمعالجة الفروع دون الاصول والعناوين دون المحتوى، ويمنعنا من الاصلاح والتجديد.

لذلك يركز هذا البحث على ابراز اصول التربية الاسلامية المنشودة مع مقارنة بأصول التربية المستوردة بالقدر الذي يسمح به الوقت. ولعل ذلك يساعد المختصين في الفروع من امثال مخططي المناهج، ومؤلفي الكتب المدرسية ومخططي طرائق التعليم، والمشرفين على اعداد المعلمين، ومخططي الأنشطة التربوية والثقافية وأجهزة التربية الموازية كالصحافة والاذاعة والتلفزيون على تأصيل ميادين عملهم وتحديثها بما يناسب الحاجات القائمة..

وتركز هذه الدراسة على الاجابة عن الاسئلة التالية:

س : هل هناك فلسفة تربية إسلامية تساعدنا على أسلمة الفروع والتطبيقات التربوية وتحديثها في العالم الاسلامي؟

س : هل هناك ميادين شاملة لهذه الفلسفة تغطي العلاقات القائمة بين المتعلم وبين الوجود المحيط به؟

س : هل هناك ميادين تربية اسلامية أفضل وأشمل مما هو قائم؟ وكيف تتكامل هذه الميادين لسد النقص القائم في ميادين التربية القائمة؟

س : كيف يتفاعل الدين والعلم في فلسفة التربية الاسلامية دون انشقاق أو تعارض؟

س : كيف تحول طرق التربية الاسلامية التقريرات النظرية الى تطبيقات عملية وأنشطة؟

س : هل هناك منهج معرفة تتكامل فيه الادوات والميادين والعاملون للاجابة عن جميع الأسئلة العلمية التي تنشأ في الوجود القائم كله؟

حدود الدراسة:

ان المدة الزمنية المحددة لهذا المؤتمر لن تسمح بطرح الاجابات التي وجهت اليها الاسئلة المذكورة اعلاه. لذلك سوف تقتصر حدود الدراسة المقدمة لهذا المؤتمر على بعض الاصول التربوية الاساسية مثل فلسفة التربية الاسلامية، ميادين التربية الاسلامية، منهاج المعرفة في التربية الاسلامية، وسوف يخصص لكل من هذه الموضوعات الثلاثة ورقة خاصة به، أما بقية الاصول فأرجو ان تتبع كلها في مجلد خاص مقارنة بأصول التربية الغربية المعاصرة وتطبيقاتها وبذلك يتحقق بعض جوانب الاهداف التي كان المرحوم الشهيد الدكتور الفاروقي يخشى عليها ويودنى أن أتفرغ من أجلها.

تعريف المصطلحات:

أصول التربية:

يشير مصطلح — أصول التربية — في هذا البحث الى الاسس التي يقوم عليها البناء التربوي في المجتمع في ضوء الحاجات القائمة والتطلعات المستقبلية والاصول العقدية والتاريخية.

فلسفة التربية:

يقصد بها صورة الانسان الذي تتطلع التربية الاسلامية الى اخراجه في ضوء علاقاته بالخالق والكون والانسان والحياة وما بعد الحياة.

إن البحث في أصول التربية الاسلامية أمر هام جدا. وتزداد أهميته إزاء المشكلات التربوية التي يعاني منها العالم الاسلامي. والمحور الرئيسي في هذه المشكلات هو أن نظم التربية القائمة — رغم كثرة المختصين — مازالت في طور تقليد الفروع سواء أكان تقليد الماضي أو تقليد الحديث المستورد، يصاحبه جهل بالأصول التي انبثقت عنها هذه الفروع والتطبيقات. إن الجهل بأصول ونظم التربية التي تحدرت إلينا من الماضي أو تلك التي نستوردها من الخارج يبقيها في دوامة الخلط والتخبط والاكتفاء بمعالجة الفروع دون الأصول والعناوين دون المحتوى، ويمنعنا من الاصلاح والتجديد.

فلسفة التربية الاسلامية

يقصد بفلسفة التربية الاسلامية — هنا — مواصفات الانسان الذي تستهدف التربية الاسلامية اعداده واخراجه. ويبلغ الانسان درجة الكمال حين تتشكل علاقاته بالخالق والكون والحياة والآخرة والانسان طبقا للصورة التي حددتها فلسفة الاسلام الكلية

عن الخالق والانسان والكون والحياة وما بعد الحياة.

والعلاقات التي حددتها فلسفة التربية الاسلامية هي كما يلي:

ـــ العلاقة بين الخالق وبين الانسان هي علاقة عبودية

ـــ العلاقة بين الانسان وبين الكون هي علاقة تسخير

ـــ العلاقة بين الانسان وبني الانسان هي علاقة عدل واحسان

ـــ العلاقة بين الانسان وبين الحياة هي علاقة ابتلاء

ـــ العلاقة بين الانسان وبين الآخرة هي علاقة مسؤولية وجزاء.

ويمكن أن نوضح هذه العلاقات بالشكل (1)

أولا ـــ العلاقة بين الانسان والخالق ـــ علاقة عبودية

العلاقة التي تتطلع فلسفة التربية الاسلامية الى بنائها بين الله سبحانه وبين الانسان هي ـــ العبودية ـــ لان العبودية هي الغاية من الخلق : ﴿**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾. (الذاريات ـــ 56)

والعبادة المقصودة هنا هي كمال الطاعة لله بسبب كمال المحبة والرجاء والخوف. ولكن الوصول الى هذه المحبة وتوابعها لا يكون الا بعلم ومعرفة بالمحبوب واقتناع كامل بأهليته لهذه الدرجة القصوى من الولاء: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾. (فاطر ـــ 28)

و«العبادة» في فلسفة التربية الاسلامية ـــ لها ثلاثة مظاهر رئيسية: مظهر ديني ومظهر اجتماعي، ومظهر كوني.

أما «المظهر الديني» للعبادة فموضوعه علاقة المسلم بالخالق وموضوع «المظهر الاجتماعي» هو توجيهات الخالق حول علاقة الفرد بالجماعة والحياة الاجتماعية. واما «المظهر الكوني» فموضوعة توجيهات الخالق حول علاقة الفرد بالكون المحيط.

وتطبيق «المظهر الديني» للعبادة يتطلب من التربية تعريف المتعلمين بالخالق وتدريبهم على اشكال الممارسات والشعائر الدينية المحددة.

أما تطبيق «المظهر الاجتماعي» للعبادة فهو يتطلب من التربية ان تعرف المتعلمين بأشكال التكافل الاجتماعي والفضائل الاجتماعية وتدريبهم على ممارستها. ويتفرع عن هذا دراسة ما ينتاب الاجتماع البشري وتعاقب الحضارات والعمران، وتنوع الاحوال والاحداث التي تنتاب مظاهر ذلك كله، واكتشاف قوانينها وعلاقاتها والنتائج التي تترتب عليها لان ذلك كله يرشد الى معرفة أفعال الله في الاجتماع البشري والى آثار القرب منه وآثار البعد عنه.

وأما تطبيق «المظهر الكوني» للعبادة فهو يتطلب من التربية ان تعرف المتعلمين بدقة الصنعة الالهية في الكون المحيط ومكوناته، وأن تدربهم على اكتشاف القوانين التي تنظم الكائنات الطبيعية، واكتشاف خصائصها وتطبيقاتها وتدريب المتعلمين على اشكال التعامل معها والانتفاع بها حسب التوجيهات الالهية، لانه من خلال هذا التعليم والتدريب يصل المتعلم الى معرفة قدرة الله واتقان صنعته في المخلوقات، وكثرة اصنافها وتنوع احوالها، ووفرة نعم الله الناتجة من الانتفاع بها معرفة تفوق الحصر والاحاطة.

وانطلاقا من هذا المفهوم للعبادة تتفرع علوم كثيرة لا حصر لها يمكن ان تنقسم الى «علوم دينية» و«علوم اجتماعية» و«علوم كونية». وكلها مما أمرت به أصول التربية الاسلامية لان ثمرتها مجتمعة تخريج علماء يخشون الله ويحبونه ويدعون الخلق لمحبته.

وتؤكد فلسفة التربية الاسلامية على وجوب تكامل المظاهر الثلاثة للعبادة ووحدتها، لأن الفصل بينها يؤدي الى تعطيل الغايات الرئيسية منها ويؤدي الى خراب المجتمع الذي يمارس هذا الفصل أو يسمح به ولا يقف في طريقه لأسباب هي:

السبب الأول : ان حصر مفهوم العبادة في «المظهر الديني» يقود الى الغفلة عن «المظهر الاجتماعي» وعن «المظهر الكوني». فيتعطل البحث فيهما وتنحسر العلوم الاجتماعية والكونية أو تنحرف عن غاياتها ومسارها الصحيح وبذلك ينتهي أمر المجتمع الى التفكك والانهيار.

والسبب الثاني: أن حصر مفهوم العبادة في «المظهر الديني» يفصل الغايات عن الوسائل، أو هو يقدم غايات بدون وسائل. وينتج عن ذلك أمران:

الاول : شيوع التواكل والكسل والجبرية ـــ في فريق المتدينين ـــ فيضعف الانتاج ويتحلل الناس من مسؤولياتهم، وهذا هو ما حدث في العصور الاسلامية المتأخرة حين تفتتت مظاهر العبادة فتفتت مفهوم المعرفة، وحصرت مؤسسات التربية والتعليم مفهوم العبادة في المظهر الديني فشاعت الدروشة والكسل والعجز والجبرية والسلبية إزاء الكوارث من داخل والتحديات من خارج.

والامر الثاني: الذي ينتج عن حصر مفهوم العبادة في «المظهر الديني» هو استحالة تحقيق الغايات لانفصالها عن الوسائل أي استحالة تجسيد القيم والمثل الدينية ـــ عند فريق غير المتدينين ـــ فتشيع في حياتهم التمرد على قيم الدين وتعاليمه ويحل محلها الجشع والتصارع على الدنيا واقتصار الاهتمام عليها. وهذا ما خرب المجتمعات الاسلامية كذلك في العصور المتأخرة وأدى الى قيام الفتن وأسباب الانقسام فيها.

وحين انتبهت المجتمعات الاسلامية الحديثة لآثار هذا الضعف لم تبدأ المراجعة والتقويم في ميدان التربية وانما لجأت الى التقليد — تقليد القديم وتقليد الجديد كما أسلفنا — فتعزز هذا الحصر والتطبيق الضيق لمفهوم العبادة ونشأت ثنائية في التعليم حيث تخصص مقلدوا القديم بالعلوم الدينية التي تحصر مفهوم العبادة في «المظهر الديني»، وتخصص مقلدو الجديد المستورد بالعلوم الاجتماعية والكونية المنفصلة عن العلوم الدينية ونتج عن ذلك كله ثنائية متنافرة في الاجيال الحديثة للمجتمعات الاسلامية.

ولقد كشفت البحوث المعاصرة في علم النفس عن الاثر الخطير الذي يسببه فقدان علاقة العبودية في فلسفات التربية المعاصرة. ذلك ان العبادة بمعناها الذي قدمناه وهو — كمال الطاعة لكمال المحبة — هو حاجة اساسية من حاجات الانسان وضرورة من ضرورات حياته واستمراره. وممن ناقش هذا الاثر عالم النفس الشهير — ايرك فروم Erich Fromm — في بحثه — المحبة — حيث ذكر ان الانسان بحاجة للتغلب على سجن الوحدة ورغبها والخروج منها الى شيء يتفاعل معه ويحبه ويندمج به. ويمضي — فروم — في استعراض عملية البحث التي يلجأ اليها الانسان للخروج من هذه الوحدة فيذكر ان الانسان يبدأ رحلة البحث في مرحلة الطفولة حيث يلجأ الى الالتصاق بوالدته ثم لا يلبث أن يتخطاها الى العلاقات الجسدية مع الجنس المقابل والتي تأخذ أشكالا شرعية كالزواج أو أشكالاً متطرفة كالعربدة الجنسية ولكن جميع هذه العلاقات علاقات جسدية مؤقتة ولذلك لا يلبث الانسان أن يتخطاها الى محبة الاعمال العقلية كالفنون والابداع الفكري، أو الاعمال الصناعية والتجارية ولكنها أيضا علاقات غير كاملة يظل الانسان خلالها في دوامة الوجود المادي وتظل أشواقه وروحه تتطلع الى تبادل الحب مع طرف دائم العطاء والتفاعل.

وهنا يتيه فروم Fromm ويعود للدوران في حلقة الوجود الذي انتقده، ومن الطبيعي ان يتيه لانه لم يجد الوحي الصحيح الذي يمضي به قدما للوصول الى علاقة العبودية بين الانسان والخالق.

والواقع ان الباحثين المعاصرين من أمثال ماسلو وفروم نفسه قد حاموا حول الدين وأثره في تلبية هذه الحاجة الانسانية ولكنهم دوما يطرحون مواصفات للدين الذي يمكن ان يلبي هذه الحاجة ومواصفات لا تنطبق الا على الاسلام.

في الكون يقرأ المتعلم أفعال الله وصفاته وأسماءه التي تجسدها دقة خلق الكون وتكوينه، وفي الكون يكتشف المتعلم مظاهر قدرة الله في قوانين المكونات وتقلب أحوالها. وهذه كلها علوم ومعارف إذا شهدها الانسان بعقله وحواسه اطمأن إلى خبر الوحي. فالوحي والكون جزءان في سفر واحد: أحدهما يقدم «آيات الله في الكتاب»، والجزء الثاني يقدم «آيات الله في الآفاق والأنفس».

ثانيا — العلاقة بين الانسان والكون — علاقة تسخير

الكون هو الكتاب المفتوح لقراءة صفات الله ومعرفته تقود الى المحبة الكاملة التي تقضي الى الطاعة الكاملة. والكون مختبر يتحقق فيه الانسان من «صحة» خبر الوحي ويطمئن الى «صدق» الرسول ﷺ. ففي الكون يقرأ المتعلم افعال الله وصفاته وأسماءه التي تجسدها دقة خلق الكون وتكوينه، وفي الكون يكتشف المتعلم مظاهر قدرة الله في قوانين المكونات وتقلب أحوالها. وهذه كلها علوم ومعارف اذا شهدها الانسان بعقله وحواسه اطمأن الى خبر الوحي. فالوحي والكون جزءان في سفر واحد: احدهما يقدم «ايات الله في الكتاب»، والجزء الثاني يقدم «ايات الله في الافاق والانفس».

وهذا التكامل بين ايات الكتاب وايات الكون امر تبيحه الاصول العقدية للتربية الاسلامية وتدعمه. وأول من قام بهذه التجارب الكونية هم الانبياء والرسل. فهذا ابراهيم عليه السلام يطلب من الله تجربة عملية في مختبر الكون تزرع الاطمئنان في قلبه وترسخ إيمانه فيجيبه الله الى هذا الطلب ويأمره بأن يذبح أربعة من الطير ويقسمها الى اقسام في اماكن متباعدة ليرى بعد ذلك كيف تتلاحم الاقسام وتدب بها الحياة.

وهذا «عزير» يتحقق من ظاهرة الخلق والموت والبعث

بتجربة بيولوجية عملية مادتها هو نفسه وحماره الذي يركبه.

وهذا موسى عليه السلام يطلب ان ينظر الى الله جهرة فيمره الله بتجربة كونية مادتها الجبل الذي آندك من خشية الله.

وحين طلبت قريش من رسول الله ﷺ معجزة مادية جاء هذا الامر بالتوجه الى مختبر الكون لشهود هذه المعجزات: ﴿**ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب**﴾.

والواقع ان التربية الاسلامية فتحت الباب على مصراعيه للانسان ليدخل مختبر الكون ولينظر ماذا في خلق السموات والارض، وليرى دقة هذا الخلق وقوانينه وتقلب احواله، وليرى في كل ذلك شواهد قدرة الله وعظمته فيقتنع بأهليته بالمحبة الكاملة والطاعة الكاملة، ولتتوثق بينه وبين الله ــ علاقة العبودية: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾.

وحتى يتسنى للانسان قراءة كتاب الكون واجراء التجارب في مختبره ومعرفة اسراره جاءت العلاقة ــ **في التربية الاسلامية ــ بين الانسان وبين الكون علاقة تسخير**. والتسخير معناه ان الله طوع للانسان مكونات الكون وأمده بالقدرات والمهارات والوسائل التي تمكنه من دراسة هذه المكونات وفهم علاقاتها واكتشاف قوانينها وتغير احوالها ثم تطبيق ذلك كله والانتفاع به في مجالات الحياة المختلفة.

ومن الحق ان نقول ان الانسان المسلم ــ منذ قرون ــ قد فقد الاحساس بخطورة الذنب الذي اقترفه حين عطل ــ علاقة التسخير ــ هذه وعطل «المظهر الكوني» للعبادة، وقصر مفهوم الذنب على الجوانب الدينية والاخلاقية.

لم تدرك المؤسسات التربوية ــ ومازالت لاتدرك ــ أن تعطيلها للعلوم الكونية والاقتصار على العلوم الدينية قد أدى الى عقم التربية الاسلامية ومنع ولادة الايمان واخراج افراد مؤمنين ومجتمع المؤمنين لأن الايمان مولود يهبه الله لمن تزاوجت في نفسه «الحقائق الدينية» و«الحقائق الكونية» وسنة الله أن يخلق من كل زوجين اثنين.

وتعاني المؤسسات التربوية التي اقيمت في العالم الاسلامي على النمط الاوربي من تشويه هذه العلاقة ــ علاقة التسخير ــ بين الانسان والكون، فبالرغم من وجود العلاقة بين الانسان والكون في هذه المؤسسات إلا انها علاقة مغلوطة خاطئة استمدت خطأها من المصدر الذي استقت نظمها التربوية منه ــ وهو المصدر الغربي ــ فالفلسفات التربوية الغربية ــ الاوربية والامريكية ــ كلها تقيم العلاقة بين الانسان والكون باعتبارها ــ علاقة صراع ــ فالطبيعة كون معاد للانسان، شحيح بأسراره وخيراته، والانسان يصارع ويصارع لانتزاع ما يستطيع انتزاعه. وهذا تصور حرم التربية المعاصرة من الغايات النبيلة للمعرفة الكونية وقصر التعليم على وسائل التعامل مع الكون وأدى الى تخريب البيئة واستنزاف مصادر الثروة.

البعد عن الاسلام سببه عجز النظم التربوية القائمة في العالم الاسلامي. فالاسلام ليس وجبة نتناولها أو ثوبا نرتديه أو قرص علاج نبلعه، وإنما هو أفهام ومشاعر وأعمال تحتاج إلى أن تتبلور على يد حكماء في التربية ثم تنمو وتتجسد في حياة الأفراد والجماعات على يد مربين ومؤسسات مؤهلة قادرة.

ثالثا ــ علاقة الانسان بالانسان ــ علاقة عدل واحسان

العلاقة التي تقيمها فلسفة التربية الاسلامية بين الانسان والانسان هي علاقة «العدل والاحسان»، وهذه العلاقة هي الترجمة العملية لـ «المظهر الاجتماعي» للعبادة الذي مر ذكره. ولقد حددت الاصول العقدية للتربية الاسلامية الاطار العام لهذه العلاقة عند قوله تعالى: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والاحسان**﴾ (النحل ــ 90)

والعدل معناه الانصاف، اما الاحسان فمعناه التفضل (1). والعدل هو الحد الادنى للعلاقات بين بني الانسان، والنزول اليه رخصة مقبولة حين تثور المنازعات وتقع النفوس فريسة الانفعال والغضب المؤديين الى الجور والظلم، أو حين تتحرك مشاعر الهوى والشهوات وتصبح النفوس عرضة للميل والتحيز. والعدل دوائر بعضها أوسع من بعض وهي تتدرج حسب سعة دوائر الانتماء

البشري. وتبدأ الدائرة الاولى بالعدل مع النفس، ثم تليها دائرة العدل في الاسرة ﴿**فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم الا تعدلوا فواحدة**﴾ (النساء 3)

ثم تليها دائرة القربى ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾ (الانعام 152)

ثم تليها الدائرة القومية أو دائرة الامة او المجتمع الذي ينتمي اليه الفرد او الجماعة ذوي العلاقة ﴿**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين**﴾ (الحجرات 9)

واخيرا تليها الدائرة الانسانية كلها ﴿**وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل**﴾ (النساء 58)

والعدل خلال هذه الدوائر مطلوب في جميع الاحوال والظروف: فهو مطلوب مع الاعداء والاصدقاء، وفي اوقات الخصومات وسوء الصلات وحسنها. وشيوع — علاقة العدل — دلالة النضج والكمال والاستقامة. وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿**وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير. هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم**﴾ (النحل 76)

أما علاقة «الاحسان» ومعناه التفضل كما مر فهو العلاقة الطبيعية التي فطر الانسان عليها. وهي علاقة يشجع الله الناس للتسابق في ميدانها. وأساس هذه العلاقة ان الانسان خير في الاصل، وأنه مفطور على التعامل مع الاخرين حسب أصله الطيب، وأنه حين تثور الخلافات بين انسان وآخر، فإن الواحد منهما — في الحقيقة — هو أمام عدو عارض، وعدو أصيل. فالانسان هو العدو العارض الذي وقع ضحية العدو الاصيل وهو الشيطان. والاحسان يعيد الانسان الى أصله في الاخوة ويعزل الشيطان عن استغلاله واستعماله والى هذا تعددت الاشارة في القران الكريم من ذلك قوله تعالى :

﴿**خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين. واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم**﴾ الاعراف: 199 — 200

﴿**ادفع بالتي هي احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب ان يحضرون**﴾ المؤمنون: 96، 97، 98

﴿ **ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم**﴾. فصلت: 34، 35، 36.

ولقد علق ابن كثير على هذه الآيات الثلاث بقوله:

«فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو ان الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الانسى والاحسان اليه ليرده عنه طبعه الطيب الاصل الى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة اذ لا يقبل مصانعة ولا احسانا ولا يبتغي غير هلاك ابن ادم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم» (1).

وتتدرج «علاقة الاحسان» أيضا حسب دوائر الانتماء البشري. فتبدأ بالدائرة الاولى — دائرة النفس.

ثم تليها — دائرة الاسرة — حيث تكون علاقة الاحسان مع الوالدين والزوجة والابناء.

ثم تليها الدوائر القومية والانسانية ﴿**واذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا، وذي القربي واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسنا**﴾ (البقرة — 83)

والاحسان — مثله مثل العدل — مطلوب في جميع الاحوال والاوقات وفي الرضى والخصومات. وتؤكد التربية الاسلامية على سريان علاقة الاحسان بين الانسان والانسان في جميع ميادين الحياة ومظاهرها، ويفصل القرآن والحديث في ذلك تفصيلات يصعب حصرها.

وخلال التأكيد على علاقة الاحسان بين الانسان والانسان تقدم المصادر الاسلامية نماذج كثيرة من ثمرات هيمنة هذه العلاقة، واثار انتشارها بين الناس، وجزاء المحسنين الذين يتحلون بها. فتذكر أن من ثمراتها محبة الله وثوابه في الدنيا والاخرة، والرزق وتنزل الرحمة، والمنعة والقوة والتمكين في الارض والمغفرة والحكمة والعلم والسلام والامن وغير ذلك.

ولابد للتربية ان ترسخ هذه العلاقة في اهدافها ومناهجها وطرائقها. وان تكون بها جميع العلوم الاجتماعية والسياسية والادارية، ولابد ان تمكنها من توجيه عادات المجتمع وقيمه وثقافته وممارساته، وان توجه جميع التطبيقات العملية في ميادين العلاقات الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية والعلاقات الادارية والسياسية، وان توجه تطبيقات العلوم الطبيعية والاختراعات والكشوف حتى تصبح نعمة للبشرية وامنا لا سببا في الشقاء والتهديد والخوف والطبقية والاستغلال.

ومن الضروري ان نقول ان نظم التربية المعاصرة تفتقر الى هذه العلاقة. ومن عيوب المؤسسات التربوية المعاصرة انها اهملت

هذه العلاقة أو شوهتها. ويتضح اهمالها لها في تخصصات الفروع العلمية والتقنية ابتداء من مستويات الشهادات الدنيا حتى شهادة الدكتوراه، وهي تقتصر على تنمية مهارات البحث والانتاج في هذا الميدان وتهمل العلوم الانسانية اهمالا كاملا.

وأما أنها طرحت بدائل مشوهة ضارة فهذا واضح في التخصصات الادبية والعلوم الاجتماعية التي ركزت على علاقات الاقليمية والنفعية والقومية والعصبية والعنصرية والطبقية والمذهبية والعرفية وما تفرزه هذه من مضاعفات في العلاقات الظالمة بين الافراد والاسر والامم. وعلاقات التنافس والصراع التي استمدتها من الداروينية الاجتماعية التي بنت العلاقات على أساس البقاء للأقوى.

رابعا ـــ علاقة الانسان بالحياة ـــ علاقة ابتلاء

العلاقة التي تربط الانسان المتعلم بالحياة هي «علاقة ابتلاء». وهي أيضا مشتقة من علاقة الانسان بالله ـــ أي علاقة العبادة ـــ لانها شكل آخر من أشكال «المظهر الاجتماعي» لهذه العبادة وترجمة عملية له. وهي تجسد الشق الثاني من معنى العبادة وهو كمال الطاعة.

والابتلاء معناه الامتحان والاختبار، أي اختبار مدلول العبادة بشقيه: كمال المحبة وكمال الطاعة. فإذا كانت علاقة الانسان بالكون قد امدته بشواهد قدرة الله واستيقن صدق ما جاءت به «الرسالة» استيقانا أورثه محبة الله واستشعار عظمته، فإن المطلوب من خلال علاقة الابتلاء هذه هو برهنة هذه المحبة عملا وممارسة وذلك باختبار هذه المحبة والتحقق من تحولها الى «طاعة كاملة» والى سلوك وعمل في ميادين الفكر والعاطفة والممارسات العملية.

والحياة هي الزمن المقرر لاختبار هذه «المحبة الكاملة» والتحقق من تحولها الى «طاعة كاملة» في الميدان العملي ﴿**هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا**﴾ (الملك: 2)

والأرض هي القاعة التي يجرى فيها الابتلاء والاختبار، وما على الارض من ثروات وزينة هي مواد هذا الاختبار أدواته ﴿**انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا**﴾، الكهف: 7. فاذا انتهت المدة المقررة لهذا الاختبار افرغت الارض من محتوياتها وطوى وجودها.

أما ميادين هذا الاختبار فهما ميدانان رئيسيان، الأول ميدان النفوس، والثاني ميدان المال والممتلكات ﴿**لتبلون في أموالكم وأنفسكم**﴾ (آل عمران: 186)

وتنقسم أشكال الابتلاء التي يتم من خلالها اختبار عبادة الانسان ـــ اي محبته وطاعته لله ـــ الى قسمين رئيسين: الاول يضم مواد الاختبار التي يدرجها القران تحت اسم «الخير» أو «الحسنات». والقسم الثاني يضم مواد الاختبار التي يدرجها القران تحت اسم «الشر» او «السيئات»:

﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون**﴾ (الانبياء ـــ 35)

﴿**وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون**﴾ (الاعراف ـــ 168)

ويقدم القرآن تفاصيل القسم الاول ومواده التي تندرج تحت اسم «الشر» ويسوق له الامثلة والاشكال ومنها الأختبار بالمصائب والمحن، والخوف والجوع والنقص في الاموال والانفس، والابتلاء بالمبدأ والعقيدة، والحروب والهزائم والمرض والاضطهادات وغيرها.

كذلك يقدم القران تفاصيل القسم الثاني وموادها التي تندرج تحت اسم «الخير» ويقدم له الامثلة ومنها الابتلاء بالثروة والغنى والنجاة من المحن والمصائب والاضطهادات والكوارث، والابتلاء بالجاه والمناصب والمكانة الاجتماعية، والابتلاء بأوامر الله أو عصيانها وغير ذلك.

والانسان ـــ افراد وجماعات يعيشون شكلى هذا الاختبار ـــ الخير والشر ـــ في كل لحظة من لحظات العمر الدنيوي، وفي كل عمل من أعمال الدنيا. فالذين يختبرون بالغنى يشاركهم في الموقف فريق آخر يختبرون بالفقر. والذين يختبرون بالقوة يشاركهم في نفس الموقف فريق آخر يختبرون بالضعف، والذين يختبرون بالجاه وعلو المنزلة يشاركهم في نفس الموقف فريق يختبرون بالتبعية ودنو المنزلة. فالناس في ذلك كله طبقات ودرجات ومتقابلات كل يختبر بالآخر :﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم**﴾ (المائدة ـــ 48)

﴿**ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ (الأنعام ـــ 165)

وفي كلتا الحالتين من الاختبار يطلب الى كل ممتحن أن يحفظ إنسانيته ـــ إنسانية العبد الموحد ـــ من الانتفاخ أو التقلص. فاذا ابتلى ب«الخير» لا يتعدى منزلته كعبد ولا يطغى فيدعى صفات الله في الربوبية والحكم والتحكم بمقدرات المخلوقات وتعريفها طبقا لأهوائه لا طبقا لتوجهات الله ﴿**إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾. وإذا ابتلى ب«الشر» يهبط عن مكانته كعبد لله ويستحيل الى عبد للمخلوقات أو الشهوات ويرضى بالخنوع والذل والمكانة ويستمرىء العجز والكسل ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض**﴾ (النساء :97).

وتحتاج المؤسسات التربوية الى توضيح هذا الابتلاء وحكمته مظاهره وميادينه وكيفية معالجته والتعايش معه، وتحتاج كذلك الى ايصال ذلك الى المتعلمين وتربيتهم وتدريبهم ليتعايشوا مع هذه القوانين والسنن الاجتماعية وذلك لاسباب هي:

السبب الاول، أن الانسان ـــ بدون تعليم وتربية ـــ سوف ينظر لهذا الابتلاء نظرة سطحية. فيعتبر الابتلاء بالخير «اكراما»، والابتلاء بالشر «اهانة»، وهذا الخطأ في الفهم يصرفه عن فهم الحكمة من الابتلاء **﴿فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن﴾** (الفجر ـــ 15 ـــ 16)

والسبب الثاني، ان وظيفة التربية أن تدرب الانسان على التعايش مع علاقة الابتلاء ولا يتعداها، وان لا يتصور ـــ قاعة الاختبار الموقوتة ـــ وهي الحياة على الارض انها دار قرار ونعيم دائم **﴿اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾** (الحديد: 20)

ومن الحق ان نقول: ان نظم التربية القائمة لا تملك هذا التصور في العلاقة بين الانسان والحياة، وانما هناك تصورات مضطربة تتراوح بين علاقة المتعة والاستهلاك أو علاقة العدمية والفوضى، كذلك المؤسسات التربوية الاسلامية لا تجسد هذه العلاقة في مناهجها وطرائقها التربوية.

ومن الحق أن نقول: أن نظم التربية القائمة لا تملك هذا التصور في العلاقة بين الانسان والحياة، وإنما هناك تصورات مضطربة تتراوح بين علاقة المتعة والاستهلاك أو علاقة العدمية والفوضى، كذلك المؤسسات التربوية الاسلامية لا تجسد هذه العلاقة في مناهجها وطرائقها التربوية.

خامسا ـــ علاقة الانسان بالاخرة ـــ علاقة مسؤولية وجزاء

العلاقة التي تربط الانسان بالاخرة هي علاقة مسؤولية وجزاء، وهي ترتبط بالعلاقات السابقة ارتباطا منطقيا كاملا. فاذا تدرج الانسان في العلاقات السابقة من المعرفة والمحبة الى العمل والاختبار، فان الخطوة التالية هي تقويم مظاهر هذه العلاقات للتحقق من نجاحها او فشلها.

والمسؤولية معناها ان كل انسان سوف يسأل عن كل ما ابتلى أو امتحن به من الحياة الدنيا. وبمقدار قربه من النجاح أو الفشل يتقرر جزاؤه ومستقره.

والاخرة هي المستقر الابدى للجزاء بعد المسؤولية، وهي مستقر ينفصل فيه اختلاط الاشياء والافراد، وهذا الانفصال هو نهاية الابتلاء، ومكونات الجزاء هي النعيم الدائم أو الشقاء الدائم. والجنة هي دار النعيم والنار هي دار الشقاء. **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون﴾** الحجر 92 ـــ 93 **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾** الزلزلة 7ـــ8.

وتنقسم أشكال هذه المسؤولية الى اقسام هي: الاول، مسؤولية الرسل عن اداء رسالاتهم. والثاني مسؤولية الامم عن موقفها من الرسالات التي تلقتها. **﴿فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين﴾** الاعراف: 7 **﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون﴾** الزخرف: 44

كذلك تسأل الامم عن موقفها من قادتها وعن ربطها طاعتها لهم بطاعتهم لله ولذلك ادان القران شعب فرعون لانه سمح لفرعون بالاستخفاف بهم والتلاعب بمصيرهم. **﴿فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين﴾** الزخرف: 54

كذلك تسأل الامم عن مدى تمسكها بحرياتها ورفضها الخضوع لغير الله **﴿ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض﴾** النساء: 97

كذلك تسأل الامم عن التخلف والجمود وعدم التجديد والرضى بالتقليد الاعمى.

كذلك تسأل الامم عن الخيرات الاقتصادية وغيرها كيف جمعتها وفيما استعملتها **﴿لتسألن يومئذ عن النعيم﴾**

كذلك تسأل الامم عما تعهدت به وبايعت عليه.

والقسم الثالث هو مسؤولية القيادات الدينية والسياسية والفكرية والاقتصادية وأمثالهم. ومن ذلك قوله ﷺ: «**يقول الله عز وجل يوم القيامة للانبياء والعلماء: انتم كنتم رعاة الخلق فما صنعتم في رعاياكم؟ ويقول للملوك والاغنياء: أنتم كنتم خزان كنوزى هل واصلتم الفقراء وربيتم الايتام واخرجتهم منها حقى الذي كتبته اليكم**». *

وهكذا فالكل راع وكل راع مسؤول عن رعيته. *

والقسم الرابع هو مسؤولية الافراد عن وجودهم كله. من ذلك قوله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»**.

والانسان يحتاج الى فهم علاقة المسؤولية في الاخرة وفهم ميادينها وتفاصيلها. وأهمية التركيز على هذه العلاقة في التربية وتعمق معانيها في وجدان المتعلم هو إيجاد إحساس عميق بالمسؤولية الاجتماعية إزاء افعاله وممارساته ووزنها جميعها بميزان العلاقات التي توجهها. فإن تعامل مع الله وزن هذا التعامل بعلاقة العبودية، وان تعامل مع بني الانسان وزن تعامله بعلاقة العدل والاحسان، وان تعامل مع الحياة وزن تعامله بميزان الابتلاء والامتحان، وان تعامل مع الكون وزن تعامله بعلاقة التسخير وهكذا في كل عمل من اعماله فلا يطغى ولا يضعف وانما يظل مسترشدا بالتوجيهات الالهية مقوما لنفسه عن مدى التزامها أو الانحراف عنها.

المسؤولية الاخروية والمسؤولية الاجتماعية

وعلاقة المسؤولية هذه هي الحلقة التي تربط بين مواقف الانسان في الدنيا وفي الاخرة وتجعلهما طورين متعاقين في رحلته وتطوره نحو الكمال.

فالتربية الاسلامية وهي ترسخ علاقة الابتلاء في نفس المتعلم انما تركز كذلك على تنمية المسؤولية الاجتماعية التي تهيؤه لاجتياز اختبار المسؤولية الاخروية. وهذه صفة تميز فلسفة التربية الاسلامية عن غيرها من الفلسفات التربوية الاخرى. فهذه الفلسفات التربوية — خاصة المعاصرة كالبراجماتية وأمثالها — تقوم فيما تقوم على اصل تربوي، جميل لفظه، خطير محتواه، وهو توجيه المتعلم للبحث عن حقوقه والمطالبة بها. وهو في تعريفه لهذه الحقوق انما يصدر عن شهواته المتغيرة التي لا تقف عند حد.

أما التربية الاسلامية فتقيم الحياة الاجتماعية على اساس توجيه المتعلمين افرادا وجماعات للقيام بمسؤولياتهم نحو الاخرين. وإذا ورد لفظ «الحقوق» في المصادر الاسلامية فانما يرد بمعنى المسؤولية كأن يوجه المسلم أو المسلمة «للحق الذي عليه» لا «للحق الذي له». وفي مواقف متعددة حينما سأل البعض الرسول ﷺ عن الحقوق التي لهم أصر على ان تكون صيغة الجواب توجيههم الى الحقوق التي عليهم. وهذا الاختلاف بين الفلسفات التربوية المعاصرة وبين التربية الاسلامية اختلاف اساسي وجوهري. فحينما يوجه الافراد والجماعات للقيام بمسؤوليتهم نحو الفرد والاسرة والمجتمع والانسانية فإن الطابع الذي ينظم العلاقات هو — العطاء والبذل — وتكون النتيجة هي المودة والاخوة والتراحم وما ينتج عن ذلك كله من أمن واستقرار. اما حينما يوجه المتعلم للبحث عن حقوقه التي تستمد تعريفها من شهواته، فإن الطابع الذي تتخذه العلاقات هو — الاخذ — ويتصاعد هذا «الاخذ» الشهواني حتى يصبح نهبا ونهما وتنافسا وتصارعا، وما يتفرع عن ذلك كله من اضطراب وتحاسد ومضاعفات الصراع الطبقي والجريمة والاستعمار وغزوات الامم والشعوب بعضها بعضا، وتتقطع الارحام وتدمر العلاقات على مستوى الافراد والجماعات والامم.

ولقد أخطأ فهم هذا المبدأ كثير من الباحثين الاوربيين والامريكيين والمسلمين حين تبادلوا الهجوم والدفاع حول موضوع «الحقوق» في الاسلام والنظم الوضعية.

ولعل من الانصاف ان نقول إن كثيرا من الكتاب القوميين والاسلاميين المعاصرين وقعوا في نفس الخطأ فاستعملوا منهج المطالبة بالحقوق لاثبات ان في الاسلام «حقوق المرأة» و«حقوق العمال» الى غير ذلك فكانت النتيجة ان كتاباتهم لم تثمر شيئا في تصحيح الاوضاع بل أسهمت في نقل جرثومة الصراع الطبقي الى العالم العربي والاسلامي وما تبع ذلك من مضاعفات الفتن والانقلابات العسكرية.

ومما كشفته ايات الله في الانفس أو — علم النفس حسب مصطلحات عصرنا — ان الشعور بالمسؤولية عميق الجذور في النفس الانسانية، وان الانسان ميسر لهذه المسؤولية، سهل عليه ممارستها ويسعد في اتيانها، وأنها حاجة من حاجاته النفسية. ولقد استطرد — ايرك فروم Erick Fromm في استعراض هذا الجانب وخلاصة ما قاله في هذا الشأن: أن المسؤولية عميقة الجذور في النفس الانسانية، وهي تتجلى بظاهرة الحب الذي هو عطاء وليس أخذا، واهم مظاهر العطاء ليست في الاشياء المادية وانما في المجالات الانسانية. فالفرد يعطي من نفسه، ومن حياته ومتعته واهتماماته ومعرفته ومزاجه واحزانه ومن كل مكونات الحياة في وجوده ليشيع الحياة في وجود الاخرين. ومكونات هذا العطاء أربعة عناصر رئيسية هي: الرعاية، والمسؤولية، والاحترام. والمعرفة، ويتجلى مظهر الرعاية في حب الأم لطفلها، والرعاية نفسها نابعة من الاحساس بالمسؤولية. والمسؤولية حاجة نفسية تنبع من داخل وهي استعداد نفسي لتلبية حاجات الاخرين، والمسؤولية هي نتيجة العنصر الثالث للحب وهو — الاحترام —. والاحترام هو القدرة على رؤية الانسان على حقيقته والتعرف على وجوده المتميز، وهو أيضا الاهتمام بتوفير الفرصة للاخر لينمو ويترعرع وينضج لنفسه دونما استغلال أو لخدمة الاخرين.

ولكننا لا نحترم انسانا الا إذا عرفنا فيه ما يستحق الاحترام.

وبدون المعرفة تصبح الرعاية والمسؤولية والاحترام سلوكا اعمى. فالمعرفة هي الدافع للرعاية والمسؤولية والاحترام. وبذلك يكون الحب حصيلة أربعة مكونات هي: الرعاية، والشعور بالمسؤولية والاحترام والمعرفة.

ويضيف ــ فروم Fromm ــ أن معاني هذه العناصر الاربعة التي تكون الحب قد تعرضت للتشويه في وقتنا الحاضر من خلال الافهام الخاطئة التي صورت المسؤولية واجبا مفروضا على الانسان من خارج نفسه، وصورت الاحترام على انه المهابة والخوف، وانتهت بالمسؤولية كذلك لتصبح تسلطا وهيمنة. (1).

المسؤولية والدرجية

ويرتبط مفهوم المسؤولية في التربية الاسلامية بمبدأ اخر وهو ــ الدرجية ــ أي ان الله جعل الناس درجات في الخلافة عنه في الارض. وتتحدد مسؤولية كل فرد امام الله حسب درجة الخلافة التي وضعه الله فيها. ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماآتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾ (الانعام 175)

فمن خرج عن حدود درجية الابتلاء وقلبها الى طبقية الامتياز والتمتع والاستئثار أسرع الله في عقوبته، ومن تاب وأصلح غفر الله له ورحمه من العقوبة. وهذه الدرجية انواع هي: درجية في الرسالة، درجية في الفهم والعلم، درجية في المكانة والابتلاء، درجية في الغنى والفقر، درجية في القوة والضعف، درجية في القيادة والتدبير، درجية في الايمان والاسلام، ودرجية في الجزاء الاخروي.

ويلاحظ على هذه المستويات الدرجية ثلاثة أمور هي:

الاول : ان الاساس في هذه الدرجية انها ابتلاء لا امتياز. أي أن أهل كل درجة عليا هم مسؤولون عن العناية بأهل الدرجة الدنيا، وهم ممتحنون بها. وهنا يظهر التكامل مع علاقة الابتلاء أو علاقة الانسان بالحياة التي مر الحديث عنها.

والثاني: ان هذا التقسيم والتوزيع في الدرجات هو من حق الله وليس من حق البشر ولا حسب مقاييسهم، وأن المقياس فيه هو الايمان والعلم وأن هدفه هو تنظيم الجهود وتسخيرها ليخدم الناس بعضهم بعضا ويعين بعضهم بعضا حسب ما أودع الله فيهم من القدرات والاستعدادات.

والثالث: ان الدرجية المشار اليها تعزز روابط المحبة والطاعة اذا اقترنت بالمسؤولية أمام الله. أي ان صاحب الدرجة العليا ينقاد له الناس بالطاعة والمحبة في حياته وبعد موته، وهذا هو حال الانبياء والصالحين من العلماء، والعادلين من الحكام والامراء، وهذا هو الذي يتفق مع فطرة الخلق السليمة.

أما إذا كانت الدرجية سلطانا وقوة، وثروة ونفوذا، فان النفوس لاتنقاد لاصحاب الدرجات العليا ولا تحبهم وتظل تتحين الفرص للثورة عليهم، وإذا ماتوا شيعت تاريخهم بالخزى وكشف العيوب.

والرابع: ان هذه الدرجية تعطى ثمارها في تسخير البشر وتنظيمها لمعاونة بعضهم بعضا مادامت مقترنة بالشعور بالمسؤولية امام الله. وهذه كانت حالة أمثال عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الايوبي، ولكن حين تنفك العلاقة بين الدرجية والمسؤولية، فان الدرجية تنقلب الى طبقية تسلطية جوهرها القوة والظلم وهدفها الحكم والاستغلال والاستمتاع، لان صاحب الدرجة العليا يتخذ لنفسه في هذه الحالة المنزلة الاولى في سلم الوجود البشري ولايرى نفسه مسؤولا امام احد.

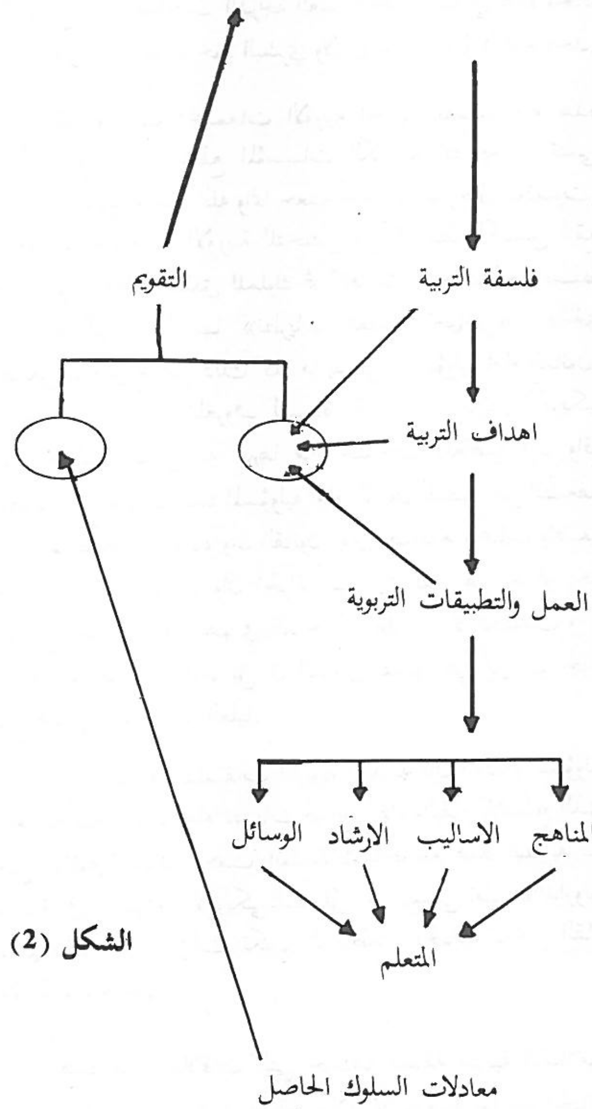
لقد وجدت المجتمعات الاوربية الحديثة نفسها امام هذه المشكلة حين لم تستطع المؤسسات الكنسية التربوية ان تنمي الشعور بالمسؤولية امام الله وانما جعلته أمام بشرهم رجال الكهنوت، فكافحت المجتمعات الاوربية للتخلص من التسلط الكنيسي لتقع تحت نفوذ الحكم المطلق للملوك ثم كافحت للتخلص من تسلط الملوك وابتكرت لنفسها «نظريات العقد الاجتماعي» و«الحق الطبيعي»، وتفرع عن ذلك كله ما يسمى بالمسؤولية امام القانون. وبالرغم من المستوى المعروف لسيادة القانون في القارتين الامريكية والاوربية التي تفضل به غيرها من المجتمعات المعاصرة فإن واقع التطبيق يكشف ان هذه المسؤولية امام القانون تقتصر على الضعفاء الذين لم يضعوا القانون، وان القانون حين يصطدم برغبات واضعيه يجري الاعداد لتبديله، وان الجرائم التي تكتشف هي جرائم رجل الشارع اما جرائم من هم في الدرجات العليا فيه لا تكتشف و لا تصنف في قوائم الجريمة، بل ان القوانين نفسها هي تبريرات لجرائم من هم في الدرجات العليا.

اما بالنسبة للفلسفات التربوية الحديثة فان اختفاء المسؤولية امام الله فتح الباب امام نظريات صراع البقاء والبقاء للاصلح الذي يعني الاقوى! ولقد ترجمت الفلسفات الحديثة هذه النظرية ــ خاصة في المسرح الامريكي ــ الى ما يسمى ب «الداروينية الاجتماعية» التي مازالت تكون النشاطات الحياتية داخل القارة الامريكية وخارجها.

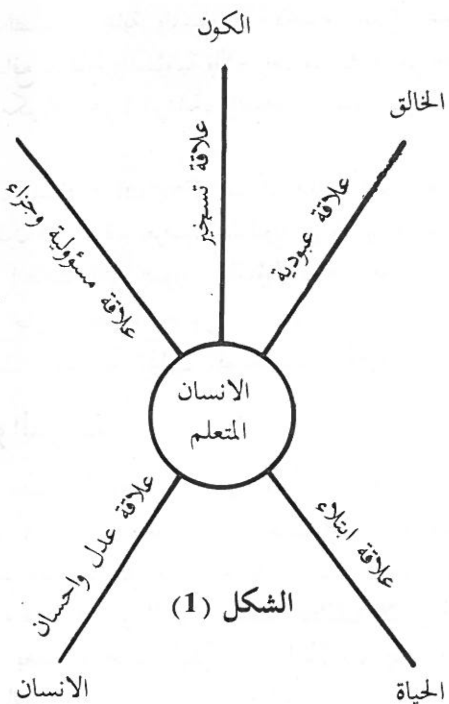
هذه هي العلاقات التي حددتها فلسفة التربية الاسلامية بين الانسان المتعلم والخالق والكون والانسان والحياة وما بعد الحياة. ومن هذا المفهوم تتفرع أهداف التربية وميادينها، وطرائقها، وأدواتها لتتظافر جميعها في اخراج الشخصية المسلمة المنشودة، ولابد ان

نراعى ان هذه الميادين جميعها خاضعة لامرين: الاول ظروف التطور وتجدد الحاجات، والثاني، الحاجة لتقويم المفاهيم المتعلقة بذلك لقابلية حدود الخطأ والحاجة الى التقويم، ويمكن ان نوضح العلاقات الدائرة في ميدان العمل التربوي الشكل (2)

أصول التربية العقدية التربوية : اخراج الفرد والامة من الداروئية الاجتماعية والعلمية.



الشكل (2)



الشكل (1)

مصادر البحث

1 ــ القران الكريم وتفاسيره

2 ــ صحيح البخاري

3 ــ صحيح مسلم

4 ــ مسند احمد

5 ــ كنز العمال

6 ــ ابن تيمية، الفتاوي، الرياض: 1381

7 ــ الغزالي، أبو حامد، احياء علوم الدين (4 اجزاء)

8 ــ المؤتمر الاول للتعليم الاسلامي

9— Dubos, René. So Human an Animal, New York: Charles Scribner's sons, 1968

10— Smith, Jane I. & Yvonne Y, Haddad, «Women in the Afterlife» in journal of the American Academy or Religion, XLIIII, N° 1, 1975) PP. 39-50

11— Weisz, Paul, B. The Contemporary Scene. New York. Mc Graw Hill, 1970.

ملف التربية
ـ 2 ـ

قراءة في الكتابات التربوية الاسلامية
من ابن سحنون الى ابن خلدون

للأستاذ عبد الناصر السباعي

مقدمات :

النصوص موضوع هذا البحث عبارة عن مختارات من كتابات المفكرين المسلمين التي لها علاقة بالقضايا التربوية، اقتطفها د. محمد ناصر (1977) من مؤلفات : ابن سحنون (202 ـ 256 هـ / 819 ـ 870 م) والفارابي (260 ـ 339 هـ / 873 ـ 950 م) والقابسي (324 ـ 403 هـ / 035 ـ 1012م) وابن مسكويه (320 ـ 421 هـ / 932 ـ 1030 م) وإخوان الصفا (القرنان الرابع والخامس للهجرة / القرنان العاشر والحادي عشر الميلاديين) وابن سينا (370 ـ 428 هـ / 980 ـ 1037 م) والغزالي (450 ـ 505 هـ / 1059 ـ 1111 م) والزرنوجي (توفي سنة 591 هـ / 1242 م)، وابن جماعة (639 ـ 733 هـ) وابن خلدون (732 ـ 808 ه / 1332 ـ 1406 م)، وجمعها في كتاب بعنوان «الفكر التربوي العربي الاسلامي»، وقراءتنا لهذه النصوص ليست بهدف الدفاع عن تراثنا والاعتزاز به في مواجهة الفكر التربوي الغربي، فنحن نظن أن هذه المرحلة من تاريخ فكرنا الحديث قد استنفذت مهمتها وأدت دورها في تنبيه المسلمين الى سوء الحال التي هم عليها، وأننا الآن في مرحلة جديدة لا ينطلق فكرنا فيها من الرد على أكاذيب المستشرقين ودعاواهم، بل يتحرك انطلاقا من رؤية خاصة لامراض أمتنا ومن تصور خاص أيضا لعلاجها. وبهذا الصدد يقول الشهيد اسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله (1986) : «ليس هناك أدنى ريب في أن مركز الداء ومنبعه في هذه الامة إنما هو النظام التعليمي السائد. إنه التربة الخصبة لتربية العلل. في المدارس والكليات تولد وتؤيد عملية تغريب النفس عن الاسلام: عن تراثه وأسلوبه. إن النظام التعليمي هو المعمل الذي فيه يعجن ويشكل الشباب المسلم، وهناك يصاغ وعيهم في قالب هو صورة ممسوخة للغرب وتفصم الرابطة بين المسلم وماضيه، وتوضع في وضع حرج رغبته الطبيعية في التطلع لمعرفة تراث أسلافه. ونتيجة للشكوك التي بثها هذا النظام في اعماق وعيه تصاب بالتبلد رغبته في أن يقف مع أسلافه على أرض مشتركة لينطلق منها نحو بعث للاسلام جديد وملائم للعصر » (ص 29).

إن التشخيص الذي قدمه الشهيد الفاروقي رحمه الله لأمراض هذه الأمة دقيق ويحتاج الى وقفة فاحصة لادراك أبعاد هذا المشكل الخطير. فلقد تمكن المستعمر في كل أقطار العالم الاسلامي أن يغرس نظامه التعليمي ويعطيه كل فرص الحياة والبقاء، ويُجهز في نفس الوقت على مؤسسات التعليم المريضة التي وجدها في النزع الاخير عند بداية حملته الاستعمارية. ولا جدال في أن هذه المهمة كانت أخطر من كل مهمات النهب والتنكيل والتخريب التي مارستها جيوش الاستعمار في البلدان الاسلامية. إذ أن عمليات القتل والتعذيب والسلب التي تعرضت لها الامة لم تكن آثارها لتبقى طويلا لو وقفت المصيبة عند هذا الحد. فأقصى ما يمكن تصوره هو أن يعاني جيل أو جيلان من مخلفات المرض والفقر والتشرد ثم يلتئم الجرح بعد ذلك ويستعيد جسم الامة الحياة ويدب فيه النشاط من جديد. وقد حدث هذا في تاريخ الامة الاسلامية حين غزتها جيوش المغول، وحين عدت عليها جيوش الصليبيين، فقد حملت فلول الجيشين معها كل أسلحة الدمار والتخريب التي استعملتها في غزو المسلمين بعد أن اضطرت الى العودة من حيث أتت. أما في الحملة الاخيرة فقد اختلف الامر تماما عما سبق، لقد سخر المستعمر كل الوسائل الممكنة ليحقن نظامه التعليمي المسموم في جسم الدولة المستعمرة قبل أن يلملم أطرافه ويسحب جيوشه، ليترك الضحية يفعل فيها السم فعله. وكانت النتائج أفظع بكثير على الامة من كل الحروب الهمجية التي

شنتها آلة الحرب الاستعمارية لان الخسارة هذه المرة لم تكن مادية وحسب وانما كانت خسارتنا الكبرى هي خسارة الانسان. لقد ضاع جيل ما بعد الاستقلال بعد أن إصبح لا يعرف شيئا تقريبا عن تراثه العلمي والحضاري، ففقد بذلك هويته وتنكر لها (والانسان عدو ما جهل) وأصبح ينظر الى الاسلام على أنه هو المستعمر!! وكفى بهذا خزيا وجهالة.

هذا الواقع وحده كاف لدفعنا لطرح موضوع التراث التربوي الاسلامي وتوجيه الانظار الى أهميته، إلا أن هناك أمورا أخرى نود طرحها قبل الخوض في قراءة النصوص : — أولها أن حالة التخلف المزري التي نعيشها ليست في اعتقادنا نابعة من مشكلة اقتصادية أو فنية أو غيرها، بل هي مشكلة إنسانية أولا — وما المشاكل الاقتصادية وغيرها الا أعراض لها — رافدها الاساسي هو الاسلوب التربوي المتخلف المتبع في تنشئة أبنائنا. والتربية بحكم دورها المحافظ تعمل على استمرار هذا التخلف وعلى تعميقه واستفحاله، ونرى بالتالي أنه لا مكان للحديث عن حل لمشكلة التخلف بدون إعادة النظر في نظامنا التربوي من الاساس ولا نقصد هنا النظام التعليمي وحسب، بل كل المؤسسات الاجتماعية والاعلامية التي تسهم في العملية التربوية بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ثانيها أن عملية إعادة النظر المطلوبة هذه لا يمكن أن تتم بدون قراءة فاحصة للتراث الاسلامي في المجال التربوي، وذلك بحكم انتمائنا الى هذا الدين الذي يبقى المقوم الاساسي لحضارتنا ورسالتنا كأمة الى بقية شعوب العالم مهما حاول عملاء التخريب فصلنا عنه وانكار علاقتنا به. وقراءتنا للتراث يجب أن تبدأ بالكتاب والسنة لاستخراج عناصر نظرية اسلامية في التربية، ثم تنتقل بعد ذلك الى ما خلفه المفكرون المسلمون من كتابات في هذا المجال. وإذا كنا قد اخترنا في عملنا هذا أن نتخطى المرحلة الاولى لنسهم بقدر الامكان. في المهمة الثانية، فلأننا غير مؤهلين للقيام بالمهمة الاولى.

— أما الامر الثالث فيتعلق بفائدة مثل هذه القراءة للكتابات التربوية لدى المفكرين السابقين، فللقارىء الحق في أن يتساءل : ألا يكون في هذه المهمة عناء لا طائل من ورائه مادام أن الزمن قد تجاوز أساليب الاقدمين في التربية والتنشئة؟ ولماذا لا نكتفي بالقرآن والسنة مادام أنهما المرجع الأصلي في كل كتابات المسلمين؟ ثم ألم يكن النظام التربوي السابق من أهم نقط ضعف المسلمين التي مهدت للاستعمار؟ إن الاجابة عن هذه الاسئلة تستلزم منا أن نضع نصب أعيننا مجموعة اعتبارات:

1 — إن الاسلام عبارة عن منهج رباني لتربية الانسان في كل مراحل عمره، لكن برغم هذا التطابق بين مفهومي الاسلام والتربية، فإن القرآن والسنة، وهما المصدران الرئيسيان للشريعة، لا يحتويان على تفاصيل نظرية شاملة حول جميع القضايا التربوية التي نواجهها في وقتنا الحاضر، بل أعطى الاسلام الأطر الثابتة التي لا تتحول ولا تتغير بتغير الزمن مثل حقيقة الانسان، منشئة ومصيره وغاية وجوده وصلته بربه وعلاقته بغيره من حوله...

وهذه هي الثوابت التي يمكن الاعتماد عليها في بناء نظرية تربوية إسلامية، أما التفصيلات التقنية — إذا صح التعبير — فمتروكة لاجتهاد المسلمين كل بحسب مبلغه من العلم.

يمكن القول إذن بأنه لا تتوفر نظرية إسلامية مفصلة ونهائية في التربية يمكن اتخاذها مرجعا في قراءتنا للنصوص التي بين أيدينا. نعم لقد عمل المفكرون المعاصرون على استخلاص الاسس العامة للنظرية التربوية الاسلامية (1) لكنها تبقى — دون انتقاص من تلك المجهودات — محاولات فردية غير مكتملة، ولا يمكن أن تدعي لنفسها أنها نهائية وذلك لسببين على الاقل :

— لأن النصوص القرآنية والحديثية نظرا لاطلاقها في الزمان والمكان لا يعقل أن يكون قد تم فهمها بشكل نهائي وتام حتى الآن، ذلك أنها احتوت كنوزا من الحقائق والاسرار التي نلاحظ أن بعضها ما زال يفهم تدريجيا مع تطور المعارف دون ان نصل بعد الى فهمه كليا، والبعض الآخر ما يزال علمه مغيبا عنا تماما. وهذه إحدى معجزات القرآن خاصة ففي كل عصر من العصور الاسلامية السابقة تمكن المسلمون حسب المستوى الذي بلغته علومهم أن يفهموا من القرآن ما يستجيب لحاجات مجتمعهم، ومنذ العصر الاسلامي الاول نلاحظ أنه كلما تطور المجتمع الاسلامي وتطورت العلوم ازداد فهم العلماء للقرآن ووجدوا فيه من الحلول لمشاكل عصرهم مالم يكن يدركه السابقون، ويكفي أن ندرس الآن تفسيرين كتبا في فترتين متباعدتين لندرك هذا السر في كتاب الله تعالى الذي قال الرسول ﷺ في وصفه : «لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد» أو كما قال.

— أما السبب الثاني فلأن بناء نظرية اسلامية في التربية لا يمكن أن يتم بمعزل عن أَسْلَمَة ميادين أخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما، إذ نحن نعتقد أن أسلمة المعرفة مشروع واسع ومتعدد الاختصاصات، ومالم يتحقق تقدم في المشروع ككل فإنه يبدو من الصعوبة بمكان أسلمة ميدان واحد بشكل ناضج في استقلال عن بقية الميادين.

2 — ينبني على ما سبق أن دراسة مجهودات المفكرين المسلمين — سواء منهم القدامى او المحدثين لدى معالجتهم للمشكلات التربوية التي واجهوها ينبغي أن تتم في ضوء المحكات التالية :

— قدرة المفكر على استخراج الأسس العامة للتربية التي

أرساها الدين من الكتاب والسنة.
ـ مدى فهم المفكر وإدراكه لحاجات المجتمع ومشكلاته.
ـ وأخيرا طريقته في الجمع بين فهمه للدين وفهمه للواقع لتقديم حلول تنسجم مع قواعد الدين الاسلامي وفي نفس الوقت تستجيب لمتطلبات المرحلة التي يمر بها المجتمع.

إن تحليل الانتاجات التربوية الاسلامية في ضوء هذه العناصر الثلاثة ودراستها تبعا لمدى استيعابها لها واستيفائها لكل عنصر منها يقودنا الى الحديث عن مقومات هذه الرؤية النقدية والتي يمكن أن نجملها في النقطتين التاليتين:

أ ـــ نسبية الانتاج الفكري البشري : إننا ننطلق من أن التفكير الانساني يتأثر بشكل حتمي بالمستوى المعرفي الذي وصلت اليه الانسانية، وإذا كان هذا واضحا ولا يحتاج الى دليل فيما يتعلق بالعنصرين الثاني والثالث أعلاه، أي في فهم الواقع الاجتماعي وفي تقديم الحل الاسلامي له، فإنه يحتاج منا الى تنبيه خاص فيما يتعلق بالعنصر الاول، أي عند إعمال الفكر في نصوص الكتاب والسنة. فإطلاق هذه النصوص في الزمان والمكان، وبعبارة أوضح عدم نسبيتها قد يقود الى اعتبار أن كل ما يستخلصه الفكر الانساني منها له أيضا نفس الاطلاق. والواقع أن فهم الانسان لأكثر ما في القرآن والسنة فهم نسبي وليس مطلقا، خاصة ما يتعلق بقضايا النفس والقلب وغيرهما مما له صلة مباشرة بتفسير السلوك الانساني وبالتربية تبعا لذلك.

ب ـ ويترتب على ذلك أن فهمنا الآن للقضايا التربوية من الزاوية الاسلامية لا يمكننا اعتباره فهما نهائيا مطلقا بحيث نحاكم من خلاله المفكرين السابقين تبعا لمدى اتفاقهم معنا أو مخالفتهم لنا، بل إنه من الأسلم لنا أن نضع إنتاجهم في إطاره الزمني والمعرفي الخاص الذي حددنا عناصره أعلاه، وان نعتبر فهمنا ربما أكثر تطورا بالنظر الى تطور المعارف التي وصلتنا بالمقارنة مع فهم من سبقنا ممن لم تتوفر لهم معارفنا الحالية. ولنتذكر دائما أن الذين سيأتون بعدنا سينظرون الينا بنفس النظرة التي ننظر بها نحن الآن الى المفكرين السابقين وذلك حتى نعرف موقعنا في سيرورة التطور المعرفي.

ونخلص الآن الى الحديث عن فوائد دراسة التراث التربوي، ويمكن أن نذكر منها ثلاثا :

أ ـــ فمن ناحية أولى تعطينا نموذجا حيا للتفاعل مع الثوابت التي أشرنا الى وجودها في الكتاب والسنة وبامكاننا الاستفادة من طريقة المفكرين السابقين في تفاعلهم مع حاجات مجتمعهم التربوية وفي استخلاصهم للمبادىء والطرق التي تستجيب لغاياتهم من خلال فهمهم للقرآن والسنة.

ب ـــ ومن ناحية ثانية تطلعنا على النموذج الذي كان ينبغي أن تتطور عنه منظومتنا التربوية المعاصرة والذي انقطعت صلاتنا به لظروف تاريخية لا مجال للتعرض لها هاهنا فدراسة الكتابات التربوية السابقة تطلعنا على افكار أسلافنا عن معنى التربية وأهدافها وعن المؤسسات التربوية وتنظيمها والبرامج التربوية وعن تصورهم للمربي وعلاقته بالمربي...

ج ـــ ولا بد لنا من ناحية أخرى في مثل هذه المهمة من قراءة ناقدة حتى تكون الفائدة تامة إذ من العبث أن ننطلق من تقديس التراث بشكل يعمينا عن رؤية مواطن الضعف و القوة فيه. فتاريخ المجتمعات الاسلامية تتخلله فترات ازدهار وانحطاط وعدم التمييز بين هذه وتلك قد يدفع البعض الى اعتبار النظام التربوي الذي ساد في القرون الاربعة الأخيرة هو النموذج الذي كنا نتحدث عنه حتى الآن، والحال أن هذه الفترة الطويلة من تاريخنا شهدت انحطاط العالم الاسلامي وأفول الفكر الاسلامي المبدع في كل الميادين ويمكن القول ان ابن خلدون كان آخر وجوه فترة الازدهار وقد توفي رحمه الله سنة 808 هـ / 1406 م لذا ينبغي الانتباه الى أنه من السطحية الساذجة اعتبار النظام التربوي الاسلامي مسؤولا عن انحطاط المسلمين وعن تخلفهم ووقوعهم تحت نير الاستعمار، وبالتالي رفض كل ما يمت الى الاسلام بصلة بناء على هذه العلاقة المفتعلة، دون تمييز بين ماهو من الاسلام وبين ما هو أثر للانحراف عن الاسلام.

وفي ختام هذه المقدمة يمكننا القول اننا الان أمام مهمة ذات هدفين :

الاول إعادة الاعتبار الى التراث الاسلامي والرد على محاولات الطمس التي تمارس عليه بشكل منظم، فقد درج مؤرخو الفكر التربوي الذي ندرسه في معاهدنا وجامعاتنا الحالية على الرجوع الى الفلاسفة الاوروبيين لتأريخ الكتابة والتفكير في القضايا التربوية، ونحن في هذا مقلدون لما يجري في جامعات الغرب التي يتعمد أساتذتها تجاهل اسهام الحضارات التي ازدهرت بعيدا عن القارة الاوربية وخاصة ما يتعلق باسهام الحضارة الاسلامية. وهو أمر يقصد من ورائه الى جعل العلم والحضارة محصورين في الحدود الجغرافية للقارة الاوربية وحتى إذا امتدا خارج أوربا فإنهما سيتبعان الجنس الآري المتفوق سواء الى أمريكا أو جنوب افريقيا!! ولقد تعرض المفكرون المسلمون ـــ ربما أكثر من غيرهم ـــ لتجاهل منظم في الدوائر العلمية الغربية بشهادة أحدهم حيث يقول : «إن أغلب التخصصات العلمية في الجامعة (تاريخ، أداب) تتجاهل بشكل منظم تقريبا الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والكتاب والفنانين المنتمين الى المنطقة الاسلامية منذ القرن السابع وحتى القرن العشرين» (بالطا، 1987 ص 23)

أما الهدف الثاني فيتمثل في فحص التراث الاسلامي بشكل

دقيق تمييز ماهو من الاسلام وما هو دخيل عليه، ولاستجلاء الجوانب المشرقة في التراث والتي درست بفعل التجاهل الغربي وغفلة المسلمين، وتعرية الجوانب السلبية التي أدت الى التدهور والانحطاط. وهذا يستلزم أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لقول الحق والانصاف في مسائل التراث. إذ لا تخلو مواقف المهتمين حاليا بقضية التراث من انفعال زائد يحيد بهم عن الصواب : فهم بين منكر لكل قيمة في التراث دون أيّ تمييز أو اعتبار وهذا شطط لا شك فيه وبين مدافع عن قيمته وأهميته بشكل يعطي للتراث هالة من التقديس تجعل أي إشارة الى جوانبه السلبية تجرؤا منكرا وهذا أيضا شطط لا نرتضيه.

إننا لا ننكر أن الموقف الوسط المنصف شيء بالغ الصعوبة لان الامر يتعلق بقضية شديدة الحساسية في المحافل الفكرية المعاصرة وقد يلزمنا أن ننتظر قليلا حتى تخرج القضية من بؤرة الاهتمام ومن مجال المساومات والمزايدات لكي تتم دراسة التراث بشكل متزن، بيد أننا سنحاول في هذا الظرف الحرج قراءة بعض النصوص في ضوء الملاحظات التي أسلفنا جاهدين ألا نقع بتوفيق الله وعونه في المزالق التي نبهنا اليها.

قراءة النصوص :

إن القراءة الاولى للنصوص موضوع هذا البحث تبين لنا الاختلاف الكبير بين اهتمامات كل واحد من الكتاب عن الاخر فمنها نصوص يغلب عليها الطابع الفقهي (ابن سحنون — القابسي) وأخرى ذات طابع فلسفي (الفارابي، ابن مسكويه، إخوان الصفا، ابن سينا، الغزالي) وأخرى تربوية تعليمية (الزرنوجي، ابن جماعة) إضافة الى الكتابة الاجتماعية عند ابن خلدون. وتنوع الاهتمامات هذا أضفى خصوبة على النصوص حيث نجد أن كل واحد قد سلط الضوء على جانب من جوانب المسألة التربوية اكثر من غيره ولكنه في نفس الوقت يطرح صعوبة في إيجاد خيط ناظم لعرض الاراء الواردة فيها، ولذا نقترح أن يدور حديثنا حول المحورين التاليين.

— الانسان والتربية

— العلم والتعليم

واختيارنا لهذين المحورين موجه بحيث نتناول من خلالهما الموضوعات المهمة من وجهة نظرنا بالنسبة للتربية في الوقت الحاضر، ونحن لا ندعي هنا أننا نقوم بدراسة تحليلية شاملة للنصوص بل نركز على الجوانب التي نرى أنها ذات فائدة للقارىء بحيث تنبه الى تفكير المسلمين حول قضايا ذات أهمية بالغة — حسب رأينا — في نظامنا التربوي الحالي لكنها لا تعطي لها الاهمية اللائقة بها أو هي غائبة تماما فلا يتكلم عنها أحد. وطبيعي في مثل هذه الحالة أن نغفل الكثير مما قاله كتاب النصوص مما لا نرى له فائدة في سياق تفكيرنا هذا، وأن نبرز بعض الافكار الهامشية في تفكير السلف.

أما اختيارنا للمحورين السابقين لتنظيم قراءتنا للنصوص فمرده الى أن موضوعات التربية تنقسم بوجه عام الى موضوعات نظرية منها مبحث يسمى فلسفة التربية يتناول الخلفيات الفكرية والاعتقادية حول الانسان والتربية بمعناها العام وأهداف التربية... وهناك موضوعات تطبيقية تتناول جوانب جزئية وتفصيلية في العملية التربوية مثل التعليم وقد رأينا أن جل ما ورد لدى الكتاب المسلمين الذين نقرأ لهم يدخل تحت أحد هذين المحورين ولذا اقتصرنا عليهما وأغفلنا ما سوى ذلك.

إن أهم أسباب الأزمة التربوية التي تعاني منها الأمة الاسلامية في اعتقادنا هو افتقادنا لمنظومة تربوية متماسكة ومتناسقة تنسجم فيها الأهداف والتصورات مع التقنيات والوسائل، ففكرنا التربوي عبارة عن فسيفساء من الافكار المتناقضة (إسلام، علمانية، اشتراكية، تقدمية...) وينعكس هذا الخلط والغموض على تربيتنا في المدرسة والمنزل وعلى توجيهات وسائل التربية المسموعة والمرئية والمكتوبة...

الانسان والتربية

إن الموضوعات التي تندرج تحت هذا المحور تشمل التصورات الفلسفية العامة حول الانسان : منشئه ومصيره، غاية وجوده، موقعه داخل الكائنات وعلاقته بربه... وأيضا ما يتعلق بالتصورات العامة حول معنى التربية وفائدتها وأهدافها... وسنقسم حديثنا داخل هذا المحور الى ثلاث نقط:

أ — ماهو الانسان؟

ب ـــ ما التربية وما ضرورتها؟

ج ـــ ماهي اهداف التربية؟

وقد أفاض الفلاسفة المسلمون في هذه الموضوعات اكثر من غيرهم بحكم علاقتها بالقضايا التقليدية التي تعالجها الفلسفة، ونود التنبيه الى أن هذه الاسئلة التي تبدو نظرية وفلسفية مجردة على جانب كبير من الاهمية في مجال التربية، وهي ترتبط فيما بينها بشكل وثيق. فعلى نوع الاجابة عن السؤال الاول يتوقف معنى التربية وهدفها ووسائلها : فمن كان يعمل على تربية انسان يعتقد أنه سليل القرود ستختلف مهمته حتما عن الذي يربي انسانا يعتقد أنه من ولد آدم وتربية الانسان الذي يعتقد مربيه أن حياته لا تحدها الموت بل تمتد الى العالم الاخر لابد أن تختلف عن تربية الانسان الذي يتصور أن الموت هو النهاية التي ليس بعدها شيء والاختلاف هنا لن يكونَ سطحيا بل سيكون جذريا على مستوى الاهداف المرسومة وعلى مستوى الوسائل المستخدمة لبلوغها، وحتى إن كانت هناك نقط التقاء في بعض التفصيلات التقنية فذلك لا يغير من هذه المفارقة شيئا.

هذا الجانب لا يحظى بأي اهتمام في برامجنا التربوية للاسف بينما نعتقد انه لا بد من تصور واضح للفلسفة التي تقف وراء تربية أبنائنا إذا كنا نريد ان تكون اختياراتنا التربوية منسجمة مع الاهداف التي نتوخاها والوسائل التي نستخدمها. وإن أهم أسباب الازمة التربوية التي تعاني منها الامة الاسلامية في اعتقادنا هو افتقادنا لمنظومة تربوية متماسكة ومتناسقة تنسجم فيها الأهداف والتصورات مع التقنيات والوسائل، ففكرنا التربوي عبارة عن فسيفساء من الافكار المتناقضة (إسلام، علمانية، اشتراكية، تقدمية...) وينعكس هذا الخلط والغموض على تربيتنا في المدرسة والمنزل وعلى توجيهات وسائل التربية المسموعة والمرئية والمكتوبة... بينما سنلاحظ من خلال قراءتنا للنصوص أن النظام التربوي لدى المسلمين سابقا لم يكن يعاني ـــ نسبيا ـــ من هذا التمزق.

يقول ابن مسكويه بصدد الاسئلة السابقة : «غرضنا (...) أن نحصل لانفسنا خلقا ٭ تصدر به عنا الافعال كلها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي. والطريق الى ذلك أن نعرف أولا نفوسنا : ماهي، وأي شيء هي، ولاي شيء أوجدت فينا ـــ أعني (كَمَالَهَا) وغايتها، وما قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العليّة وما الاشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتفلح وما الذي يدسيها فتخيب فان الله عز وجل يقول : «ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» (ص 121 ـــ 122) ٭٭.

الانسان في كتابات المفكرين المسلمين:

ينطلق الفلاسفة المسلمون في الاجابة عن الاسئلة السابقة من مسلمة واحدة هي أن الله عز وجل خلق الانسان من طبيعتين مختلفتين الاولى جسمانية والثانية روحانية، ومرجعهم في ذلك كما لا يخفى كتاب الله تعالى : «إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» (سورة ص. الآيتان 70ـــ71) لكنهم عند تفريعهم لمستويات النفس الانسانية نجدهم يتبنون التقسيم الافلاطوني على الخصوص وربما دفعهم الى ذلك ان الخبرة العامة المشتركة بين جميع الناس لا تتعارض مع مثل ذلك التقسيم لكنهم لم يفطنوا الى أن هذا الاخير ليس متطابقا مع مفهوم النفس وتفريعاتها في القرآن والسنة إذ لم نجد في نصوص الفلاسفة المسلمين الذين شملتهم دراستنا (2) أية محاولة لبحث هذا الموضوع في القرآن والسنة بل اكتفوا بما وصل اليهم من اليونانيين وقلدوه بدون تمحيص.

يقول إخوان الصفا : «إن الانسان (...) هو جملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية وهما جوهران متباينان في الصفات متضادان في الاحوال ومشتركان في الاعمال العارضة والصفات الزائلة» (ص 216 ـــ 217)، ويتفق فلاسفتنا على ان الانسان يشترك مع الحيوان في الطبيعة الجسمانية ويتميز عنه بالنفس الناطقة وبها يفضله أيضا ويرتبون على هذا التمييز بين الانسان والحيوان أن تكون للانسان غاية في الوجود أسمى من غاية الحيوانات، وفي هذا المعنى يقول ابن مسكويه : «وإذا كانت القوى ثلاثا (...) فأدونها النفس البهيمة وأوسطها النفس السبعية وأشرفها النفس الناطقة والانسان إنما صار إنسانا بأفضل هذه النفوس أعني الناطقة وبها شارك الملائكة وبها باين البهائم فأشرف الناس من كان حظه من هذه النفس أكثر وانصرافه اليها أتم وأوفر ومن غلبت عليه إحدى النفسين الاخريين انحطّ عن مرتبة الانسانية بحسب غلبة تلك النفس عليه فانظر أين تضع نفسك وأين تحب أن تنزل من المنازل التي رتبها الله عز وجل للموجودات فإن هذا امر موكول اليك مردود الى اختيارك فان شئت فانزل في منازل البهائم فإنك تكون منهم وإن شئت فانزل في منازل السباع وإن شئت فانزل في منازل الملائكة وكن منهم». (ص 155) ويقرر في موضع آخر : «أن من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضي أخسّ العبودية لأخسّ الموالي لأنه يصير نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة عبدا للنفس الدنيئة التي يناسب

٭ يعرف ابن مسكويه الخُلُق بأنه حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية.

٭٭ أرقام الصفحات تحيل الى مكان النص في كتاب د.محمد ناصر وليس في المراجع الأصلية.

بها الخنازير والديدان وخسائس الحيوانات التي تشاركه في هذه الحال» (ص 154). ثم يستنتج ابن مسكويه : «فإذن يجب على العاقل أن يعرف ما ابتلى به الانسان من هذه النقصانات التي في جسمه، وحاجاته الضرورية الى إزالتها وتكميلها : إما بالغذاء الذي يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته فينال منه قدر الضرورة في كماله، ولا يطلب اللذة بعينها (...) وإما باللباس الذي يدفع به أذى الحر والبرد ويستر العورة (...) وإما بالجماع الذي يحفظ نوعه وتبقى صورته (...) ثم يلتمس الفضيلة في نفسه العاقلة التي بها صار انسانا وينظر الى النقصانات التي في هذه النفس خاصة فيروم تكميلها بطاقته وجهده فإن هذه هي الخيرات التي لا تستر وإذا وصل اليها لا يمتنع منها بالحياء ولا يتوارى عنها بالحيطان والظلمات ويتظاهر بها أبدا بين الناس وفي المحافل وهي التي بها يكون بعض الناس أفضل من بعض وبعضهم أكثر إنسانية من بعض ويغذو هذه النفس بغذائها الموافق لها المتمم لنقصاناتها كما يغذو تلك بأغذيتها الملائمة لها فإن غذاء هذه هو العلم والزيادة في المعقولات والارتياض بالصدق في الآراء وقبول الحق حيث كان ومع من كان والنفور من الباطل والكذب كيف كان ومن أين جاء» (ص 157 — 158).

هذه الافكار عن الانسان تمثل الخلفية الفلسفية التي تعطي للتربية معناها وتحدد أهدافها وغاياتها وتوجه المربي في اختيار الوسائل المناسبة لتحقيقها. ولعل أبرز ما ينبغي التنبه اليه فيها هو تأكيد الفلاسفة المسلمين على تفرد الانسان وتميزه عن بقية المخلوقات وبالأخص الحيوانات التي يعمل الفكر المادي المعاصر على مد أكثر ما يمكن من الجسور بينها وبين الانسان.

فمن كان يعمل على تربية إنسان يعتقد أنه سليل القرود ستختلف مهمته حتما عن الذي يربي إنسانا يعتقد أنه من ولد آدم وتربية الإنسان الذي يعتقد مربيه أن حياته لا تحدها الموت، بل تمتد إلى العالم الآخر لابد أن تختلف عن تربية الإنسان الذي يتصور أن الموت هو النهاية التي ليس بعدها شيء. والاختلاف هنا لن يكون سطحيا بل سيكون جذريا على مستوى الأهداف المرسومة وعلى مستوى الوسائل المستخدمة لبلوغها، وحتى إن كانت هناك نقط التقاء في بعض التفصيلات التقنية فذلك لا يغير من هذه المفارقة شيئا.

معنى التربية في كتابات المفكرين المسلمين

يلاحظ ان المفكرين المسلمين لم يستعملوا لفظ التربية * بشكل منتظم وانما استعملوا ألفاظا مقاربة مثل التهذيب والتأديب والتعليم والسياسة، ولن نقف عند مواطن التطابق والاختلاف بين دلالات هذه الالفاظ لعدم مناسبة ذلك لما نحن بصدده، وسنتوقف بدلا من ذلك عند الافكار الاساسية المرتبطة بهذا المفهوم.

إن المنطلق الأساسي الذي يحدد المقصود بالتربية عند المفكرين المسلمين هو قابلية الانسان للتأديب والتهذيب. يقول ابن مسكويه : «إن الذي ينبغي أن نعلمه الآن أن وجود الجوهر الانساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه فأما تجويد جوهره فقد فوضه الى الانسان فهو معلق بارادته» (ص 150) ويعلق على اختلاف القدماء بشأن الخلق فيقول : «قال بعضهم : من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه وقال آخرون : ليس شيء من الاخلاق طبيعيا للانسان ولا هو غير طبيعي له وذلك أنا مطبوعون على قبوله وإنما ينتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعا وإما بطيئا. وهذا الرأي الاخير هو الذي نختاره لأنا نشاهده عيانا ولأن الرأي الأول يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين، والى ترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جدا» (ض 144 — 145)

يتضح مما تقدم أن المقصود بالتربية — وما جرى مجراها من الالفاظ — هو تعليم الانسان العادات المحمودة والآداب الرفيعة على شرط أن تكون موافقة للشريعة ذلك أن «الشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الافعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ الى السعادة الانسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم» (ابن مسكويه ص 147). فالانسان يولد مجردا من كل خلق — حسنا كان أو قبيحا — وعلى والديه أو من يقوم

مَقَامَهاَ القيام بتنشئته على أخلاقهم وربما لهذا السبب كان أكثر استعمال المربين المسلمين لكلمتي التهذيب والتأديب لانهما أبلغ في أداء هذا المعنى من لفظ التربية، إذ لا يمكن استعمالها في معنى تعليم السلوك الشائن أو القبيح.

ضرورة التربية للانسان :

إن القابلية العامة لدى الانسان لتعلم جميع أنواع العادات والاخلاق حسنها وقبيحها تفرض ضرورة مراقبة تنشئة الاطفال بصورة خاصة. فإذا كانت التربية على الآداب الحسنة نافعة للكبار والصغار «فإنها للاحداث أنفع، لأنها تعودهم محبة الفضائل وينشأون عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة» (ابن مسكويه ض 167) أما «إذا أهملت الطباع ولم تُرضَ بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقي عمره كله على الحالة التي كان عليها في الطفولية وتبع ما وافقه بالطبع : إما الغضب، وإما اللذة وإما الزعارة وإما غير ذلك من الطباع المذمومة» (ابن مسكويه ض 147). وقد نبه ابن سينا أيضا الى وجوب البدء في تربية الصبي منذ الفطام فقال : «فإذا فطم الصبي عن الرضاع بديء بتأديبه ورياضة اخلاقه قبل أن تهجم عليه الاخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة فإن الصبي تتبادر اليه مساوىء الاخلاق وتنثال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعا» (ص 284).

أما تقدم السن فيقف حائلا دون التأثر بتوجيه المربي وفي هذا المعنى يقول اخوان الصفا «ينبغي لك أيها الاخ أن لا تشغل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبا آراء فاسدة وعادات رديئة وأخلاقا وحشة فإنهم يعقبونك ثم لا ينصلحون وإن صلحوا قليلا قليلا فلا يفلحون». (ص. 183).

ولعله قد تبينت لنا الآن فائدة التربية للانسان وضرورتها في مرحلة الطفولة فننتقل الى الحديث عن أهداف التربية.

أهداف التربية :

لعل بعض اهداف التربية قد اتضحت من خلال الحديث السابق، إذ لا يخلو نص في شؤون التربية من إشارة صريحة أو ضمنية الى الهدف المبتغى من ذلك مع اختلاف في تحديد الاهداف من مفكر لآخر. فبعضهم يحدد اهدافا عامة للتربية والبعض الآخر يحدد أهدافا جزئية تناسب محدودية الموضوع الذي عالجه، وسنتناول هنا الاهداف العامة فقط :

بهذا الصدد نلاحظ أن الفلاسفة قد اهتموا أكثر من غيرهم بتوضيح الاهداف العامة للتربية وذلك بحكم عمومية القضايا التي يعالجونها، ويتفق أغلبهم على جعل الهدف الاسمى للانسان هو تحصيل السعادة، يقول الفارابي : «وحصول المعقولات الاولى للانسان هو استكماله الاول وهذه المعقولات انما جعلت له ليستعملها في أن يصير الى استكماله الاخير وذلك هو السعادة وهي أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود الى حيث لا تحتاج في قوامها الى مادة وذلك أن تصير في جملة الاشياء البريئة عن الاجسام وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد وأن تبقى على تلك الحال دائما أبدا (...) والسعادة هي الخير المطلوب لذاته وليست تطلب أصلا ولا في وقت من الاوقات لينال بها شيء آخر وليس وراءها شيء آخر يمكن ان يناله الانسان أعظم منها والافعال الارادية التي تنفع في بلوغ السعادة هي الافعال الجميلة، والهيئات والملكات التي تصدر عنها هذه الافعال هي الفضائل وهذه خيرات هي لا لاجل ذواتها بل إنما هي خيرات لاجل السعادة» (ص 53—54).

ويبين ابن مسكويه السعادة بشكل مختلف قليلا إذ يقول : «قد تبين أن سعادة كل موجود انما هي في صدور افعاله التي تخص صورته عنه تامة كاملة وان سعادة الانسان تكون في صدور افعاله الانسانية عنه بحسب تمييزه (...) وأما إذا صدرت عنه الأفعال بضد ما أعد له، أعني الشرور التي تكون بالروية الناقصة والعدول بها عن جهتها لاجل الشهوة التي يشارك فيها البهيمة، أو الاغترار بالامور الحسية التي تشغله عما عرض له من تزكية نفسه التي تنتهي به الى الملك الرفيع والسرور الحقيقي وتوصله الى قرة العين التي قال الله تعالى : «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» وتبلغه الى جوار رب العالمين في النعيم المقيم واللذات التي لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الخساسات التي لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل خليق بتعجيل العقوبة له وإراحة العباد والبلاد منه» (ص 131).

ويوضح ابن مسكويه المسار الواجب اتباعه لبلوغ هذا الهدف فيقول : «فمن اتفق له في الصبا أن يربى على ادب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها ثم ينظر بعد ذلك في كتب الاخلاق حتى تتأكد تلك الاداب والمحاسن في نفسه بالبراهين ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن الا اليها ثم يتدرج كما رسمناه في كتابنا الموسوم بترتيب السعادات ومنازل العلوم حتى يبلغ الى أقصى مرتبة الانسان فهو السعيد الكامل». (ص 158).

ويقول ابن سينا : «إن السعادة الانسانية لا تتم الا باصلاح الجزء العملي من النفس وذلك بأن تحصل ملكة التوسط بين الخلقين الضدين. أما القوى الحيوانية فبأن تحصل فيها هيأة الاذعان

واما القوى الناطقة فبأن تحصل فيها هيأة الاستعداد والانفعال» (ص 294 — 295).

أما إخوان الصفا فهدفهم أكثر وضوحا واختصارا، يقولون : «اعلم ياأخي بأن كل علم وأدب لا يؤدي صاحبه الى طلب الآخرة ولا يعينه على الوصول اليها فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة. وذلك أن الملوك والجبابرة والفراعنة في القرون الماضية كانت لهم عقول رصينة وآداب بارعة وسياسة وحكمة وصنائع عجيبة وهكذا من كان يعاشرهم وينادبهم ويقرب إليهم من وزرائهم وكتابهم وعمالهم وقوادهم وعلمائهم وأدبائهم ولكن هلكوا من أجل أنهم صرفوا تلك القوى والعقول والافهام وأكثر تفكيرهم وتمييزهم ورويتهم في طلب شهوات الدنيا والتمتع بلذاتها ونعيمها بالرغبة الشديدة والحرص والتمني للخلود فيها وجعلوا أكثر كدهم وسعيهم في صلاح امور الدنيا حتى عمروها وأهملوا الاخرة وذكر المعاد ولم يستعدوا له وذكروا الدنيا وغفلوا عن الآخرة ولم يتزودوا من الدنيا وتركوها لغيرهم ورحلوا عنا كارهين، فصارت تلك النعم وبالا عليهم إذ لم ينالوا بها الآخرة فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين» (ص 214).

هذه خلاصة ما تضمنته آراء الكتاب الذين نقرأ لهم في موضوع أهداف التربية وحياة الانسان عموما، والملاحظ أن صياغتها تختلف من كاتب لآخر ويرجع هذا الاختلاف في نظرنا الى درجة تأثر كل منهم بالفلسفة اليونانية. وهنا نجد انفسنا أمام مشكلة من المشاكل الرئيسية في الفكر الاسلامي ودون أن نتوسع في الحديث عن هذا المشكل سنحاول ابراز انعكاساته على القضية موضوع دراستنا. فمفهوم السعادة كهدف أسمى لحياة الانسان يحمل دلالات مختلفة في كل من التصور الفلسفي اليوناني والتصور الاسلامي ويرجع سبب هذا الاختلاف الى أن التصور اليوناني وعلاقته بالكون قائم على أساس وثني بينما يرتكز التصور الاسلامي على توحيد الله وعبودية الانسان له. لكننا نجد أن الفلاسفة المسلمين لم ينتبهوا الى هذه المفارقة الجذرية بين الاسلام والفلسفة اليونانية فحاولوا التوفيق بين الاثنين وكأنهما متساويان من حيث الصدق والقيمة وجردوا لفظ السعادة من بعض دلالاته الاسلامية. كل بحسب ما انتهى إليه اجتهاده — وأضافو اليه دلالات فلسفية — كل أيضا بقدر — الشيء الذي جعل نتيجة تركيبهم هذا مختلفة بين الواحد والآخر حسب نسبة كل من العنصرين في المركب النهائي. ولهذا عندما نقرأ نص الفارابي لا نكاد نجد أثرا للتصور الاسلامي، لغلبة العنصر الفلسفي عليه بينما نلاحظ أن إخوان الصفا على العكس من ذلك يغلب لديهم العنصر الاسلامي حتى لا نكاد نلحظ أثرا للتصور الفلسفي، والباقون درجات بين ذلك.

وأهمية إثارة هذه المشكلة تكمن في أنها تتكرر في وقتنا الحاضر بنفس الصورة تقريبا. فإذا كان الفلاسفة السابقون قد انبهروا بالانتاج الفلسفي اليوناني فإن المسلمين المعاصرين قد انبهروا أيضا بالفكر الاوربي بحيث أنساهم ذلك التناقض الاساسي بينه وبين الاسلام وانساقوا في عمليات توفيقية تفتقر الى الرؤية النقدية التي تميز بين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون دون أن يتعارض مع الاسلام وبين غيره مما يتناقض مع الاسلام ولا يمكن التوصل بشأنه الى أي شكل من اشكال التوفيق بينهما، ونكتفي بهذه الاشارة لان الموضوع متشعب وواسع ومساحة هذا المقال تضيق عن التوسع فيه أكثر.

وسائل التربية :

ونختتم هذه الفقرة بكلمة عن الوسائل التى أشار اليها هؤلاء المفكرون لاستخدامها في العملية التربوية ويمكن أن نخلص من دراسة النصوص الى أنهم نبهوا الى ثلاث وسائل :

— الوسيلة الاولى هي التوجيه المباشر عن طريق الترغيب والترهيب والثواب والعقاب يقول ابن سينا : «فينبغي لغنم الصبى أن يجنبه (مؤدبه) مقابح الاخلاق وينكب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب والايناس والايحاش وبالاعراض والاقبال وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان وافيا. فإن احتاج الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه. وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء بعد الارهاب الشديد وبعد إعداد الشفعاء فإن الضربة الاولى إذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها وأشتد منها خوفه، وإذا كانت الاولى خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به». (ص. 284).

والوسيلة الثانية هي التوجيه غير المباشر عن طريق القدوة والملازمة يقول إخوان الصفا في ذلك : «إن كثيرا من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم وهكذا أيضا كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين وتربوا معهم، تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم إن لم يكن في كل الخلق ففي بعض، وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الاخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر إما بأخلاق الآباء واعمهات أو الاخوة والاخوات والاتراب والاصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم وعلى هذا القياس حكم الآراء والمذاهب والديانات جميعا» (ص 229).

وهناك وسيلة ثالثة هي العلم، أشار اليها ابن مسكوية لدى حديثه عن اختلاف الوسائل التربوية بحسب السن، وتأتي في مرحلة متأخرة من عمر الطفل بعد أن تكون الوسيلة الاولى قد استنفذت مهمتها. يقول ابن مسكويه : «وعلى الوالدين أخذهم بها

(أي الشريعة) وبسائر الاداب الجميلة بضروب السياسات : من الضرب ان احوجوا اليه أو التوبيخات إن اقنعت فيهم أو الاطماع في الكرامات أو غيرها مما يميلون اليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات، حتى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان طويلة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوا تقليدا وتنبهوا على طرق الفضائل واكتسابها والبلوغ الى غاياتها بهذه الصناعة التي نحن بسبيلها» (ص 147).

2 ـــ العلم والتعليم :

هذا الموضوع هو أبرز قضية تربوية في النصوص التي بين أيدينا وقد آحتل مساحة بعض النصوص بكاملها كما يتبين من العناوين التالية :

ـــ آداب المعلمين لابن سحنون.

ـــ الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي

ـــ تعليم المتعلم طريق التعلّم للزرنوجي

ـــ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة

ونظرا لعدد مواد هذا الموضوع سنعمل على عرض أهم الافكار في نقطتين :

أ ـــ فضله وأقسامه

ب ـــ الجوانب التربوية في عملية التعليم.

العلم فضله واقسامه :

إن قارىء النصوص موضوع هذا البحث ليسترعيه الاهتمام البالغ بالعلم وابراز قيمته من طرف كل المفكرين بدون استثناء على اختلاف اهتماماتهم ومشاربهم. ولكل منطقه وأسلوبه في ذلك : فالفقهاء والمربون يستشهدون بالآيات والأحاديث الواردة في فضل العلم وأهله والفلاسفة يستدلون على ذلك بالحجج العقلية والبراهين المنطقية. وقد جمع الغزالي الشواهد العقلية والنقلية على فضل العلم والتعليم والتعلم ورتبها في باب مستقل نقتطف منه بعض الامثلة، يقول الغزالي : «فضيلة العلم شواهدها من القرآن قوله عز وجل : «شهد الله أنه لا إلاه الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط.» . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجَلَالًا ونبلا. وقال الله تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (...)

وأما الاخبارفقال رسول الله ﷺ : «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده». وقال ﷺ : «العلماء ورثة الانبياء» (...)

قال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه لكميل : يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق» (ص 322 ـــ 323).

ومما تنبغي ملاحظته أن المسلمين لم يرفعوا من قيمة العلم لما يرتبط به من جاه أو منصب أو مال بل لأنه الخاصية التي يشرف بها الانسان ويرتفع عن مرتبه الحيوان ثم لأنه من أشرف العبادات التي يتقرب بها الى الله عز وجل ويطلب بها الفوز في الآخرة. يقول الزرنوجي في ذلك : «وشرف العلم لا يخفى على احد، إذ هو المختص بالانسانية، لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الانسان وسائر الحيوانات كالشجاعة والجراءة والقوة والجود والشفقة وغيرها سوى العلم. وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة وأمرهم بالسجود له، وإنما شرف العلم لكونه وسيلة الي التقوى التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الابدية» (ص 347). ولذا عندما سادت هذه النظرة لدى المسلمين ازدهرت العلوم ونمت المعارف وكانت للعلماء أمثال الامامين مالك وابن حنبل والعز بن عبد السلام مواقف مشهودة لنصرة الحق دون أن يخافوا في الله لومة لائم على عكس ما نلحظ في عصور الانحطاط حين فسدت تصورات المسلمين عن العلم وأهله حيث اختفى الانتاج العلمي المبدع وأخل العلماء بواجبهم نحو المجتمع بسكوتهم عن أسباب الفساد التي أضعفته مما لا نزال نرى آثاره الى يومنا هذا.

أما أقسام العلم فيختلف كتابنا حولها كل يستعمل معيارا للتصنيف حسب تصوره لموضوعات العلوم ونقط تباعدها وتقاربها، من ذلك تصنيف إخوان الصفا للعلوم الى علوم رياضية وعلوم شرعية وعلوم فلسفية، وتقسيم ابن سينا للفلسفة الى نظرية وعملية تدخل تحت القسم الاول العلوم المجردة وهي العلم الطبيعي والعلم الرياضي والعلم الالاهي أما الفلسفة العملية فتشمل علم السياسة وتدبير المنزل وعلم الأخلاق. ويخالفهما ابن خلدون فيقسم العلوم الى علوم حكيمة فلسفية وأخرى نقلية وضعية : الاولى موضوعها ما جاء به الوحي. ويقترب منه تصنيف الغزالي للعلوم الى شرعية وغير شرعية لكنه يتفرد عن هؤلاء بتبنّي تصنيفات فرعية أخرى معياره فيها هو موقف الاسلام من الاشتغال بها. فيقسم العلوم غير الشرعية الى محمودة ومذمومة ومباحة ويقسم العلوم المحمودة الى ما هو فرض كفاية وما هو فضيلة وليس بفريضة.

فالمحمود من العلوم ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ويصبح فرض كفاية إذا كان لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا ويعد فضيلة إذا كان مما يستغني عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج اليه كالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب. أما المذموم منها فعلم السحر والطلسمات (...) وأما المباح منها فالعلم بالاشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الاخبار وما يجري مجراه. أما

العلوم الشرعية فكلها محمودة ومنها علم هو فرض عين ويطلق عليه الغزالي علم المعاملة ويشمل ثلاثة أمور : اعتقاد وفعل وترك (ص 327 — 328).

هذا التصنيف الاخير جدير بالانتباه نظرا لادخاله معيارا جديدا لم ينتبه اليه المفكرون المتأثرون بالفلسفة اليونانية،. وأهميته بالنسبة الينا ليست في صحته أو خطئه بقدر ما هي في أخذه بعين الاعتبار لكلمة الشرع في دراسة العلوم لأن الانظمة التعليمية في البلدان الاسلامية حاليا تتبنّى التصنيف الذي يفصل العلوم عن الشريعة ويجعل لكل منها عالما خاصا لا صلة له بالآخر. طبعا نحن نعتقد الآن أن علاقة الشرع بالعلوم أوثق بكثير مما ذكره الغزالي لكن الملاحظ أن حتى هذه الدرجة في تصنيف العلوم التي تنبه اليها الغزالي ما تزال غائبة عن واقعنا ولا تزال كلياتنا ومعاهدنا قائمة على التصنيف العلماني الغربي الذي يحصر الدين في كليات الشريعة (المساجد والزوايا سابقا) ويتركه بعيدا عن العلم ومشاكل الحياة.

الجوانب التربوية في عملية التعليم :

ونقصد بها القضايا المتعلقة بالعناصر الرئيسية في الموقف التربوي : المعلم، المتعلم، والبرنامج العلمي والعلاقات الرابطة فيما بينها وخاصة علاقة المعلم بالمتعلم. ونشير الى أن المفتاح الضابط لفهم كل جوانب العملية التربوية في كتابات المفكرين المسلمين يكمن في شرف الغاية التي تجمع العالم والمتعلم وهي طلب العلم وتعليمه. ولذلك اشترط الفقهاء فيمن يتصدى لمهمة التعليم عدة شروط استوفاها ابن جماعة في اثني عشر أدبا، تبدو صعبة التحقق دائما في شخص واحد لكنها تبين خطر المهمة وعظم أهميتها. فالعالم في نظر المسلمين يعد من ورثة الانبياء بحيث يكون قدوة للعامة ولذا ينبغي عليه أن يكون ممثلا حقيقيا للاسلام من جميع النواحي وليس من الناحية الفكرية فقط. ومن هنا نفهم لماذا كانت الآداب التي ذكرها ابن جماعة شاملة لأكثر أنواع السلوك الانساني، وسنذكرها هنا باختصار.

إذا كان الفلاسفة السابقون قد انبهروا بالانتاج الفلسفي اليوناني فإن المسلمين المعاصرين قد انبهروا أيضا بالفكر الأوربي بحيث أنساهم ذلك التناقض الأساسي بينه وبين الاسلام وانساقوا في عمليات توفيقية تفتقر إلى الرؤية النقدية التي تميز بين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون دون أن يتعارض مع الاسلام وبين غيره، مما يتناقض مع الاسلام، ولا يمكن التوصل بشأنه إلى أي شكل من أشكال التوفيق بينهما،

آداب العالم

1 — دوام مراقبة الله في السر والعلن والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله فإنه أمين على ما أودع من العلوم...

2 — أن يصون العلم كما صانه علماء السلف ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف فلا يذله بذهابه ومشيه الى غير أهله من أبناء الدنيا...

3 — أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الامكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله.

4 — أن ينزه علمه عن جعله سلما يتوصل به الى الاغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على اقرانه...

5 — أن يتنزه عن دني المكاسب ورذيلها طبعا وعن مكروهها عادة وشرعا كالحجامة والدباغة... وكذلك يتجنب مواضع التهم وإن بعدت ولا يفعل شيئا يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهرا وإن كان جائزا باطنا...

6 — أن يحافظ على القيام بشعائر الاسلام وظواهر الاحكام كاقامته للصلاة في المساجد...

7 — أن يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية فيلازم تلاوة القرآن وذكر الله تعالى بالقلب واللسان...

8 — معاملة الناس بمكارم الاخلاق من طلاقة الوجه وافشاء السلام وإطعام للطعام...

9 — أن يطهر باطنه وظاهره من الاخلاق الرديئة ويعمره

بالاخلاق المرضية.

10 ـــ دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الاوراد من العبادة والاشتغال والاشغال قراءة وإقراء ومطالعة وفكرا وتعليما وحفظا وتصنيفا وبحثا...

11 ـــ أن لا يستنكف أن يستفيد مالا يعلمه ممن هو دونه منصبا أو نسبا أو سنا...

12 ـــ الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف... والأولى أن يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة اليه....(ص. 383 ـــ 387)

آداب المتعلم :

وللمتعلم آداب ينبغي أن يلتزم بها من جانبه لتحصيل العلم وقد خصص لها الزرنوجي رسالة كاملة بعنوان : «تعليم المتعلم طريق التعلم» وهي تشبه الى حد كبير ما ينشر الان تحت عنوان «دليل الطالب» بحيث تشتمل على ما يحتاج اليه الطالب الجديد من توجيهات وإرشادات في حياته الدراسية. وإذا كانت المنشورات المعاصرة تركز على الجانب العلمي في حياة الطالب فإن رسالة الزرنوجي ركزت على الجانب السلوكي والخلقي لدى الطالب حال طلبه العلم بقدر رما ركزت على الجانب العلمي وهو أمر تغفله المنشورات الاولى.

ونظرا لكثرة اداب المتعلمين سنقتصر على أمثلة منها فقط مقتبسة من الزرنوجي وابن جماعة على وجه الخصوص :

1 ـــ ينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء الله تعالى والدار الاخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الاسلام فإن بقاء الاسلام بالعلم ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل (...) وينوي به الشكر على نعمة العقل وصحة البدن، ولا ينوي به إقبال الناس اليه ولا استجلاب حطام الدنيا والكرامة عند السلطان وغيره. (ص. 350).

2 ـــ وأما اختيار الشريك فينبغي أن يختار المجد والورع صاحب الطبع المستقيم، ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان (ص. 354).

3 ـــ والرأس في تحصيل الاشياء الجد والهمة العالية (...) فأما إذا كانت له همة عالية ولم يكن له جد أو كان له جد ولم تكن له همة عالية فلا يحصل له علم الا القليل. (ص. 360)

4 ـــ ويكون مستفيدا في جميع الاحوال والاوقات من جميع الاشخاص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها» (ص. 365)

5 ـــ أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج اليه هو وعياله لسيتنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحل شرعا مهما امكنه التورع ولم تلجئه حاجة أو يجعل حظه الجواز بل يطلب الرتبة العالية (ابن جماعة ص. 405).

آداب مجلس العلم :

وللمجلس الذي يجمع المعلم والمتعلم حرمة عظيمة يجب عليهما احترامها. فالمعلم ينبغي له أن يتطهر ويتوضأ لدرسه ويأتي الى المجلس بنية نشر العلم وتلقينه ابتغاء مرضاة الله تعالى ويجلس بوقار وسكينة وتواضع ويبدأ درسه بشيء من القرآن (ابن جماعة ص. 388 ـــ 390) وعلى المتعلم مثل ذلك من حسن النية والطهارة لطلب العلم وتوقير المجلس.

وقد أفاض علماء الاسلام في تفصيلات العلاقة بين العالم والمتعلم في مجلس العلم، بما لا يسمح لنا بذكرها كلها وسنشير الى بعض منها فقط. فعلى العالم أن يلتزم بسهولة الالقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهيمه وألا يدخر شيئا من علمه وأن يبذل النصيحة لطلبته وألا يفضل بعضهم على بعض في مودة أو اعتناء وأن يراقب أحوالهم في آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطنا وظاهرا ويعلمهم مصالح دينهم ودنياهم بما تحسن به اخلاقهم بين الناس...

وعلى المتعلم أن يعظم حرمة أستاذه ويتواضع له ويصبر عليه إن صدرت منه جفوة ويحسن خطابه معه بقدر الامكان وغير ذلك مما يدخل في باب الاداب مع العلماء.

وما من شك في أن لهذه الاداب أهمية قصوى في تربية المتعلم ليس بمعنى تلقينه قدرا من المعلومات والمعارف العلمية فقط ولكن بالمعنى الأشمل للتربية الذي يستوعب الجوانب العلمية، العقلية وكذلك الجوانب السلوكية الخلقية، وكل إخلال بهذه الاداب في أي مستوى كان، سواء من جانب المعلم أو المتعلم يؤدي الى ضعف المردودية التربوية لعملية التعليم، بالمعنى الشامل لكلمة التربية طبعا. وأظننا لا نحتاج الى التنبيه على أن هذه الآداب قد اختفت تماما من مؤسسات التعليم في البلدان الاسلامية. ولم يعد هناك مكان لاي أدب من الاداب التي ذكرنا في شروط توظيف المدرسين ـــ التي تقتصر الان على شروط شكلية كالجنسية والسن والشهادة واللياقة البدنية ـــ ولا في العلاقة بين المدرسين والتلاميذ بل حلت محلها اللامبالاة من كل طرف بالطرف الاخر عموما وأصبحت ضوابط العملية التعليمية متمثلة في قوانين وضعية يتم تطبيقها وفق الهوى بعد أن غاب ضابط الورع وتقوى الله.

البرنامج التعليمي :

فيما يتعلق بالبرنامج التعليمي، يذكر ابن خلدون في مقدمته ان اول ما يتعلمه الصبيان لدى التحاقهم بالكتاب هو حفظ

القرآن وهو عادة راسخة عند المسلمين في جميع الاقطار وسبب ذلك أن التعلّم في الصغر أشد رسوخا، ولأن غالبية المتعلمين كانوا ينقطعون عن الدراسة في سن مبكرة فكان تحفيظهم القرآن حرصا من ذويهم على أخذ الأهم الذي لا غنى عنه وهو كتاب الله تعالى فإذا تابع الطفل دراسته تعلم العلوم الاخرى التي يحتاج اليها في فهم القرآن وإذا انقطع يكون قد حصل ما ينفعه في أداء عبادته ويحفظ به أصول الدين (ص 477).

أما بقية العلوم فعلى صنفين : علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه (...) وعلوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما، فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وايضاحا لمعانيها المقصودة. واما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك مخرج لها عن المقصود (ابن خلدون ص. 476 — 481)

وقد اختلفت المدارس الاسلامية من قطر لاخر في طريقة ترتيبها لمواد هذا البرنامج كما يشير الى ذلك ابن خلدون (ص. 477). وبغض النظر عن هذه الاختلافات فإن ما ينبغي الانتباه اليه في هذا البرنامج هو كونه يدور في كل الاحوال على «القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها» بتعبير ابن خلدون (ص. 480) وأنه مصمم لكي يوفر للمتعلم في كل مستوى من المستويات التعليمية أقصى ما تسمح به الامكانيات في ذلك المستوى لمعرفة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بحيث أن كل من دخل الى مؤسسة تعليمية في الاقطار الاسلامية (سابقا طبعا) لابد وأن يأخذ حظا من العلم بالقرآن والحديث يقل ويكثر حسب المدة التي قضاها في طلب العلم. وهذا التصور لاهداف البرنامج التعليمي واحد أيضا من الامور التي اختفت من انظمتنا التربوية الحالية.

وختاما نرجو أن نكون قد أوضحنا بهذا القدر على ضآلته — جانبا من اجتهادات المفكرين المسلمين في المجال التربوي وأثرنا من خلالها — مجرد إثارة — قضايا حيوية بالنسبة لأنظمتنا التربوية المعاصرة، فإذا وفقنا في ذلك فسيكون هذا البحث قد أدى دوره «وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب».

الهوامش

1 — انظر مثلا :
محمد قطب : منهج التربية الاسلامية، بيروت، دار الشروق، 1983
محمد عطية الابراشي : التربية الاسلامية، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر 1964
أحمد فؤاد الاهواني : التربية في الاسلام، القاهرة، دار المعارف، 1968
سعيد اسماعيل علي : أصول التربية الاسلامية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر 1976.

2 — نستثني من هؤلاء الامام الغزالي الذي له دراسة في الموضوع لم ترد ضمن النصوص المختارة. انظر أبو حامد من الغزالي : إحياء علوم الدين. دار الفكر 1980. المجلد الثالث، الجزء الثامن، كتاب شرح عجائب القلب ص. 1348 وما بعدها.

المراجع

محمد ناصر : الفكر التربوي العربي الاسلامي، الكويت، وكالة المطبوعات، 1977
اسماعيل راجي الفاروقي : أسلمة المعرفة، المبادىء العامة وخطة العمل (تعريب عبد الوارث سعيد) الكويت، دار البحوث العلمية، 1984
BALTA, Paul, le recul des études arabes.
Le monde, n° 13338 du 17.12.1987 p.23

عبد الناصر السباعي

فاس في 26 أبريل 1988

الإشتراكات عن أربعة أعداد

● في دول المغرب العربي :

- العادي : 30 درهما
- المؤسسات : 50 درهم
- التشجيعي : 100 درهم

● في الأقطار الأخرى :

- العادي : 10 دولار أمريكي
- التشجيعي : 20 دولارا أمريكيا

يرسل الاشتراك بإسم مدير المجلة على شكل حوالة بريدية أو على الحساب البريدي 67 P — 22 — الرباط.

ملف التربية
- 3 -

الأستاذ محمد بريش

المنهج في استشراف المستقبل

التربية نموذجا

1 - المفهوم

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، ولتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسُوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون. لايستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾
(سورة الحشر : 18 — 20)

مدخل

قبل أن أدخل في صميم موضوع استشراف مستقبل المجتمع الاسلامي مع التركيز على التربية، سأتطرق إلى نقطتين لأحدد بعض المفاهيم :

النقطة الأولى :

في علوم الادارة والتخطيط، هنالك عدة أنماط للتدبير والتسيير (1)، أبرزها نمطان :

— الادارة بالأهداف،

— والادارة بالكوارث.

والذين درسوا فنون الادارة المتقدمة أو الادارة العليا، يعرفون ما يعنيه نظريا وعمليا مفهوما هذان النمطان. إلا أنه يمكن تلخيص الشرح فيما يلي :

أ — الادارة بالأهداف تحتاج إلى كمال التنظيم، وإلى تحديد ماهية العمل الذي ستقوم به مرافق التنظيم على ضوء الأهداف المحددة التي من أجلها تم انشاء وإرساء التنظيم نفسه. والأهداف هي الأساس الذي يقوم عليه التخطيط، أما التنفيذ فيتم وفق برامج تستخلص من التخطيط، وتقارن نتائجها حين الانجاز بتحقيق الأهداف المنشودة والمحددة.

فاختصاراً، الادارة بالأهداف هي وضع مخطط واضح المعالم، متجانس مع الواقع، يسعى إلى بلوغ أهداف محددة، تتفرع منه برامج يتم تنفيذها على ضوء الأهداف والوسائل المادية والبشرية المتاحة، وتتم مراقبة إنجازها حسب معايير المخطط وبعدها أو قربها من الأهداف التي يصبو التنظيم إلى التوصل إليها، وهذا ما يسمى مبالغة في السنوات الأخيرة حين تستنفر له الوسائل ويحدد له الحد الأدنى المفروض الوصول إليه في إنجازه بالاستراتيجية أو التخطيط الشامل (2).

ب — النمط الثاني من أنماط الادارة والتدبير هو الادارة بالكوارث، وهو نمط ينطبق على تنظيم مختل النظام، منعدم التخطيط، أو تمت صياغة التخطيط فيه دون بلورة الأهداف، أو بعيداً عن الامكانيات والوسائل المتاحة، أو لم ترصد له ميزانية، أو صيغت ميزانيته على ضوء أهداف غير قارة تتغير حسب الزمان ومزاج السلطان، سواءاً كان سلطان المال في الادارة أم سلطان القرار. وتنظيم كهذا ينشغل بالجزئيات وتغيب عنه الكليات، يتقوقع في تفاصيل التخطيط وتغيب عنه الأهداف التي ألزم نفسه بتحقيقها، مجتراً معه في كلِّ أمر مشاكل الماضي، غير مبال بمتطلبات الحاضر، وغير مكترث لما قد يحمله المستقبل، فلا

يستيقظ من سباته أو يكاد إلا بالكارثة، فإذا حلت به استنفر جميع قواه وبدد جميع طاقاته، وأخلَّ بجميع واجباته في سبيل تطويق الكارثة. فإذا ما خلص منها أو كاد، ترتبت عن آثارها مشاكل أخرى يجترها من جديد ويضخمها دون تحليل لدوافعها، إلى أن ينسيه في التفكير فيها كارثة أو كوارث أخرى، وهكذا دواليك.

والمهم عندنا في هذا البحث هو الادارة بالأهداف، ذلك التنظيم السليم الذي يحدد مساره ويستشرف مستقبله بتحديد الأهداف العملية التي يسعى لتحقيقها، وبلورة التخطيط المتعدد السنوات المصاغ لبلوغها، ويعمل على ترجمة التخطيط إلى برامج زمنية يتم إنجازها حسب الامكانات المتوفرة والميزانية المرصدة.

وبلورة الأهداف وصياغة التخطيط وتحديد المسار اللازم نهجه لانجاز ذلك التخطيط وبلوغ تلك الأهداف هو ما يسمى في قاموس العلوم المعاصرة «سياسة». وبالتالي فإن مفهوم الادارة بالأهداف يشمل جميع الميادين سواءا منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو العلمية أو الثقافية أو التربوية أو السياسية أو غيرها، ولا يقتصر تطبيقه على المؤسسات أو الادارات، بل يشمل جميع النظم من دولة وحكومات وهيآت ومنظمات، إقليمية كانت أو دولية.

وإذا تكلمنا على صعيد الأمة أو على صعيد الدولة، فإننا حين نرسم الأهداف ونمضي في إنجاز التخطيط، فإننا في عمليتنا هذه إنما نبني حضارة أو نشارك في بناء حضارة، وهذا ما يجرنا إلى النقطة الثانية.

النقطة الثانية :

والحضارة عبارة عن إنتاج مادي متعدد الجهات سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وتربويا (3)، وهي في كل مراحلها مسبوقة بفكر. فإن كان فكرا ناضجا ومزدهرا كانت حضارة زاهرة ومشرقة، وإن كان فكرا متقوقعا ومنكمشا كانت حضارة منزوية ومنكمشة.

والفكر مسرح (4) تتجلى فيه كل أشكال المعرفة، يسمو بسمو مصدره ونبل مقاصده. وعندنا نحن أهل الاسلام، يُنعث الفكر بالاسلامي عندما يكون مصدراه الاساسيان الوحي والكون، ويكون مقصداه وهدفاه العلم والعدل، فالوحي يجلى ما لايستطيع إدراكه الانسان بملكات عقله دون تبليغ من لدن خالقه ومدبر شؤونه، والكون كتاب مفتوح يخضع لسنن قدرها الخلاق، وجعل اكتشافها في مستطاع المخلوق.

والعدل (5) قوام الحياة وبه ترق الحضارات وبزواله تزول، والعلم لبه وروحه، فإن غاب غابت القراءة المستنيرة في المصدران الأساسيان : كتاب الوحي وكتاب الكون، واستحال الوصول للمقصد الأسنى وهو العدل، وبهذا المفهوم يكون الفكر السليم — وهو الفكر الاسلامي — عبارة عن مسرح تتجلى فيه أشكال المعرفة، المنطلقة والمستوحاة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، مستنيرة بنواميس الكون وسنن الخلق الهادفة إلى تحرير الانسان من عبودية الانسان وداعية إلى عبادة الواحد الديان بنشر العلم وإقامة العدل.

وأشكال المعرفة حين تتجلى في مسرح الفكر لا تجعل منه فكرا إلا حين تمتاز بحركتها وإشعاع طاقاتها. أما إذا كانت جامدة محنّطة فهي لاتشكل فكرا بقدر ما تشكل تركيبا لتعابير وكلمات تسعى لكي تصبح جزءا من تراث. وحركتها نابعة من توالد وصناعة الأفكار فيها، ثم صقلها حسب المكان والزمان، بالمفهوم الفلسفي لهذين المصطلحين، ثم إن ذلك لايتأتى إلا بالحرية والنقد، فإن غاب أحدهما خفت نبض الفكر وسكت قلبه.

والفكر شبه كائن حي يتأثر بما حوله فيرد هجومات ويقتبس إيجابيات، فإن ضعف بضعف في النقد أو انعدام في الحرية تمكن الفكر المهاجم من التسرب إليه، واختلت موازين صناعة الأفكار، وكثر الاجترار والتكرار.

وما نريد أن ننتهي إليه من هذه النقطة الثانية، هو أن الترويض على صناعة الأفكار، والتدرب على الغوص في بحور المعرفة، والعمل على تمثل هذه المعرفة على صعيد الأخلاق والسلوك والمعاملة، بغية نشر العلم وتحقيق العدل، هو ما نسميه تربية. فمفهوم التربية عندنا تأهيل لصناعة الأفكار، وتنمية للابداع، قوامه استلهام المعارف، وترسيخ القيم، وتطوير العلوم، وبلورة المفاهيم، بهدف نفع وخدمة الانسان، واكتشاف محيط الانسان، لعبادة رب الانسان.

ونحن لانريد أن ندخل في الجدل القائم بين رجال التربية حول تحديد مفهوم التربية، إذ أننا لو جمعنا مجموعة من المربين والمهتمين بالتربية وطلبنا من كل منهم موافاتنا بتحديد مضبوط لمفهوم التربية لأتى كل منهم بشرح يخالف في التفصيل شرح صاحبه، ويتلاقى معه في عديد من الأطروحات العامة. ولا عجب في ذلك، فالتربية يجمع رجال التربية على أنها عملية إعداد وتدريب وإصلاح ورعاية، وكل شارح لمفهومها يهدف الى صياغة المفهوم حسب الهدف المنشود من ذلك الاعداد، أو ذلك التدريب، أو الاصلاح أو الرعاية، فمن مركزٍ على التلقين، إلى مركزٍ على التعليم، الى مركز على التدريب، الى مركز على التعويد، والتربية تحتوى ذلك كله، ويشكّل مفهومها حسب الهدف الذي تقصده، والجمهور الذي تعنيه، والوسائل التي تتجلى من خلالها. فالتربية من أجل الحفاظ على البيئة غير التربية من أجل إتقان المهارة، والتربية عملية تنمية القدرات واكتساب المعارف بالنسبة للجمهور المتعلّم، وعملية ترشيد وتوجيه وتحفيز بالنسبة لجمهور المربين والمعلمين، والتربية بالأهداف غير التربية التقليدية، وتربية العصور الماضية هي غير

التربية المعاصرة، وهلمّ جرّاً (6).

ويساندنا في الاستمساك بالمفهوم الذي ذكرناه، كون المفهوم المعاصر «لم يعد المقصود به عمل المؤسسات التعليمية المنظمة فقط، بل أصبح المجتمع كله مؤسسة تربوية، وأصبحت التربية عملية مستمرة مدى الحياة» (7).

وصناعة الأفكار كما قلنا لا تكون اجترارا ولا تكون تكرارا، بل تكون صناعة حينما يكون المناخ مناخ حرية، وحينما يكون الجو جو نقد بناء، جو نقد مفيد، نقد يثري الأفكار، ويطور العلوم، ويسعى إلى تحقيق الهدفان الأساسيان اللذان هما نشر العلم وإقامة العدل.

ونستخلص مما سبق ذكره أن هنالك ترابطا بين النقطتين : بين الادارة بالأهداف والحضارة المتقدمة، والفكر السليم والتربية الراسخة، وبين الادارة بالكوارث وانعدام الحضارة، والفكر العقيم والتربية المجترة، أو المتكررة، أو المنقولة، أو المتخلفة. وهذا يجرنا في آخر هذا المدخل إلى الكلام عن المتخلف و المتقدم.

فالمتقدم يمتاز بصناعة الأفكار، وهو في صناعتها لديه المادة الخام، ولديه الآليات، ولديه السوق التي ينشر فيها البضاعة التي هي الفكر والحضارة . ولديه تصور لتطور ذلك الفكر، وإدراك لبواعث تلك الحضارة، تصور للعقبات، وإدراك للمتطلبات، وعلم بالتحديات التي يملي مواجهتها ذلك الفكر، ويشترطها ازدهار تلك الحضارة، فإذا لديه المعلومات عن ماضيه، ولديه المعلومات عن الواقع الذي يعيشه، ولديه المعلومات عن المستقبل الذي يصبو إليه.

والمتخلف بطبعه يركن دوما إلى تقليد نموذج جاهز، فهو غارق في التقليد لانعدام تبلور الافكار لديه، لايستطيع أن يمارس غير عملية النقل، فيركن إما إلى نموذج سلف، يحتمي به ويفر إليه من واقعه، وإما يسرق من أسياده الأفكار، ويخضع لقوتهم وسلطتهم، فيصبح بذلك متقوقع الفكر، مسلوب القدرة، منعدم الشهود الحضاري، وبالتالي منعدم التربية. لايستطيع تفهم الماضي، ولا تفهم حركة التاريخ، لا يستطيع الغوص في قضايا الواقع، ولا حتى مجرد التخمين فيما يمكن أن يكون عليه المستقبل، مستقبله ومستقبل مجتمعه ومستقبل أمته.

وننوي في دراستنا هذه إن شاء الله التطرق لعلوم المستقبل للتعريف بها، وحث العاملين في الحقل الاسلامي على بلورتها والعمل على ضوئها، وصياغة الاستراتيجيات والخطط استنارة بنتائجها، بل صياغة نموذج مستقبلي، يخضع لخاصيات المجتمع الاسلامي ويستجيب لحاجياته، لاندّعي الآن أن في إمكاننا بلورته، بل نحث المهتمين من علماء ورياضيين واقتصاديين على الانكباب على الابتكار في هذا المجال، وأن لانترك الآخر يفسر لنا الماضي، ويحدد لنا الواقع، ويشكل لنا مخيلات المستقبل ! خاصة في مجال خطير مثل مجال التربية.

وتشتمل دراستنا على الفصول التالية، ستنشر تباعا إن شاء الله على صفحات هذه المجلة، آملين أن يصلنا من القراء ما نصحّح به وجهة النظر، ونستكمل به المعارف حول هذا الفن وأهله ومجالاته :

الفصل الأول : المفهوم،
الفصل الثاني : التاريخ،
الفصل الثالث : المنهج،
الفصل الرابع : العناصر،
الفصل الخامس : النماذج،
الفصل السادس : الحصيلة،
الفصل السابع : الواجب،
الفصل الثامن : البيليوغرافيا والخاتمة.

والمستقبل لاينشأ من فراغ، وإنما تتحدد معالمه وتتبلور أشكاله، من خلال تطور قضايا الواقع، ومن خلال بزوغ أشياء كانت الجنينات لها موجودة في أرض الواقع. واستشراف المستقبل ليس رجما بالغيب ولا اعتداءا على حرمات الدين، ويبدو للمسلم المتأثر بعصور التراجع الحضاري والكسوف الفكري والمصاب بداء التواكل ــ الذي انتشر لسوء الفهم المتواصل لمفهوم التوكل الذي نص عليه الاسلام، وسوء استخدامه له هروبا أو عجزا أو توارثا ــ أن الخوض فيما سيكون عليه المستقبل محكوم بمقادير الاله عز وجل، ولا يجوز للعبد الخوض فيه. ومفهوم التواكل المنتشر هذا جعل عددا من جمهور المسلمين لايملكون ملكة التخطيط، ولا يحسنون ترتيب وتحديد الأوليات، ولا يربطون النتائج بالمقدمات.

الفصل الأول : المفهوم

لقد تعددت المصطلحات حديثا عند الخبراء العرب للدلالة على فن دراسة المستقبل، شأنه شأن العديد من الفنون والعلوم الوافدة من الغرب أو المنقولة عنه، أو تلك التي كان لنا فيها باع، قبل جفاف فكرنا دهرا طويلا، ولم ننتبه لها إلا بعد اهتمام غيرنا بها ثم بلورته وتطويره لها،... طبعُ المتخلف الذي ذكرناه آنفا، وهوايته لممارسة التقليد، فراراً من مواجهة معضلات الواقع بمسؤولية واعية صبورة صلبة، إدباراً جهة الماضي الحنين، أو استسلاماً لزحف الغزاة الوافدين. وأصبحت فنون الاعداد للغد تنعت بأسماء عدة : استشراف المستقبل، التنبؤ بالمستقبل، صور المستقبل، علم المستقبل، بدائل المستقبل، دراسة أو دراسات المستقبل، المستقبلية، علم المستقبلية، «المستقبلات البديلة»، التخطيط المستقبلي، عالم الغد، وهلم جرّاً... إلا أن تزايد الدراسات والبحوث عربيا — ولو ببطء — في هذا الميدان، جعل المصطلحات الثلاثة : استشراف المستقبل، المستقبلية، وعلوم المستقبل، أكثر انتشارا واستعمالا من غيرها، وإن كان المصطلح الأول يكاد يكون سائدا اليوم في مختلف الأدبيات والأبحاث والدراسات التي تناولت بالدراسة والتحليل آفاق المستقبل في العالم العربي.

وجاء هذا التعدد في التسمية لتنوع الألفاظ الأجنبية الدالة على هذا العلم عند أهله. فالناطقون بالانجليزية يستعملون المصطلحات التالية : «**Futurology**» وترجم بالمستقبلية أو علم المستقبل، و«**Discipline of studying the future**» وترجم بعلم دراسة المستقبل، و«**futurism**»، وهو مصطلح استعمله العالم الأمريكي آلفين توفلر (**Alvin Toffler**) (8)، في كتابه الشهير «صدمة المستقبل» (9)، إلا أن هذا المصطلح يختلف مدلوله المتداول عن مدلول مصطلح «**Futurology**»، لأن الأخير يرمز الى علم المستقبل بيد أن الثاني في الاصطلاح الجمالي، يدل على حركة فنية، واتجاه فني مفرط في معاداته لكل ما هو تقليدي مألوف، يؤمن بالمادة ويرى فيها طاقة الحياة، يُعتبر عند أهل الاختصاص اتجاها نقيضا للتعبيرية في الأدب والفن،وعدوا للمدرسة الطبيعية،ظهر في مرحلة العشرينات على يد الايطالي مارينتي **Marinetti** (**1876 — 1944**) في مدينة ميلانو، واندمج لنزعته الانقلابية مع الفاشية التي كان يقودها في ايطاليا موسوليني، حيث أصبح هذا الاتجاه الفني عام **1920** جزءا من الايديولوجيا الرسمية لايطاليا الفاشية، واعتبره نقاد الفن بأنه تعبير عن أزمة القيم التي تميزت بها المدرسة الرمزية.

وفي اللغة العربية ترجم المصطلحان المشار إليهما بلفظ ومصطلح واحد : «المستقبلية»، مع أن الاتجاه الفني الذي يرمز المصلح إليه يرفض المستقبل، ويعبد السرعة والآلة، ويمجد الروح الوطنية ونزعة الحرب (10).

أما الناطقون بالفرنسية فيستعملون مصطلح «**Futurologie**» (11)، وهو قليل التداول عند المهتمين بالدراسات المستقبلية، ويقابل مصطلح «**futurology**» عند الانجليز، وترجم كما قلنا بعلم المستقبل أو المستقبلية، ومصطلح «**prospective**» الذي ابتدعه رائد علم المستقبل بفرنسا غاستون برجي (**Gaston Berger**)»، وهو المصطلح الشائع في اللغة الفرنسية، مشتق من فعل «**prospecter**» أي نقب وفحص بتدقيق وانتظام، ومصدره **prospecteur** أي منقِّب ومكتشف، ومن هنا كان مصطلح «الاستشراف» العربي أقرب إلى التعبير الفرنسي، لأن العرب تقول «استشرف الشاة أي تفقدها ليأخذها سالمة من العيوب» (12)، وتلك هي خلاصة عملية التنقيب والاستكشاف.

ونحن نميل الى الذين عبَّروا عن هذا الفن بمفهوم «استشراف المستقبل»، لما تحمله لفظة الاستشراف من دلالة عريقة في لغة العرب، تعبِّر كما سنرى في الفقرة التالية أحسن تعبير عن المراد فعلا من اكتشاف آفاق المستقبل، والتطلّع لسبر أغواره.

وحتى نجلي بوضوح دلالة مفهوم «استشراف المستقبل»، نورد التوضيح اللغوي والاصطلاحي التالي :

الاستشراف في لغة العرب تحديد النظر الى الشيء بشكل يجعل الناظر أقوى على إدراكه واستبيانه، كأن يبسط الكف فوق الحاجب كالمستظل من الشمس، أو ينظر إليه من شرفة أو مكان مرتفع، أو يمد عنقه ويسدد بصره نحوه، كل ذلك يفعله للاحاطة بشكل الشيء والتدقيق في ماهيته.

يقول صاحب «اللسان» : «وتشرف الشيء واستشرفه : وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه، ومنه قول ابن مطير (13) :

فيا عجبا للناس يستشرفونني
كأن لم يروا بعدي محبّاً ولا قبلي !

وفي حديث أبي طلحة رضي الله عنه : أنه كان حسن الرمي.

فكان إذا رمى استشرفه النبي، صلى الله عليه وسلم، لينظر مواقع نبله، أي يحقق نظره ويطلّع عليه. والاستشراف أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، وأصله من الشرف العلّو، كأنه ينظر إلى موضع مرتفع فيكون أكثر لادراكه» (14).

وذكر صاحب «المحيط» : «واستشرف الشيء : رفع بصره إليه، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس» (15).

ونضيف أنه قد رفع بصره إليه لينظر إليه نظرة متفحصة حتى يحيط به ويستبينه، وبسط كفه فوق حاجبه ليتجنب أي شعاع ضوئي يشوش على رؤيته، حتى يكون نظره حديدا وصورة ما ينظر إليه أوضح له.

ومن هنا كان استشراف المستقبل، هو النظر إلى الزمن القادم ببصر حديد ونظر ثاقب، بغية تصور الواقع المقبل انطلاقا من شرفة الواقع الحاضر، واستيعابا لعبر الواقع الراحل.

ورغم أننا نميل الى الاستمساك باسم لعلوم المستقبل تضرب جذوره اللغوية في لغة العرب الأوائل، فإننا لانسعى إلى نهج أسلوب إسقاط التعابير المعاصرة على مفردات تراثنا اللغوي، ولن نحاول عبثا تحميل التاريخ مالا يحتمل، وندخل على التراث ما ليس فيه، فنتصنّع أصولا إسلامية أو تراثية لعلوم المستقبل الحديثة، أو نختزل نصوصا للبرهنة على سبق العرب والمسلمين في ميدان الاهتمام بالمستقبل. فذلك أمر إن كان يؤيده كوننا أمة مأمورة وحياً بالاعداد والتقديم للغد — وهو أمر صريح للاهتمام بالمستقبل — فإن غفلتنا المزمنة عن هذا الاعداد ترمي الى الدلالة على العكس.

فكون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نصت وطلبت من المسلمين العمل على الاهتمام بمستقبلهم الدنيوي، لكسب مستقبل أخروي، وحثتهم على إحكام العدة، وإتقان التطلع، فإن ذلك لايكفي للدلالة على سبق المسلمين في ميدان العلوم المستقبلية، علما بأن الأمم السابقة من أهل الكتاب، أمرت بنفس الاعداد والاستعداد.

ولا يعني قولنا هذا أن المسلمين الأوائل كانوا فاقدي الحس المستقبلي، أو منعدمي التخطيط البعيد المدى ! بل على العكس، كان إيمانهم الساطع ويقينهم التام في مستقبلهم بين يدي الله عز وجل خير حافز لهم لتخطي العقبات، ومواجهة التحديات، والعمل لصالح قومهم والأجيال المقبلة، حتى أنهم لم يروا المستقبل في أنفسهم، بل رأوه في أبنائهم وأبناء من يدخلون دين الله أفواجا، أبناء التواقين للحرية والانعتاق من جبروت الطغاة، فهجروا ديارهم، وضحوا بدنياهم في سبيل دينهم، لكي يعيش الخلف في رغد من العيش، وحرية في الدين، تضمن حياته ومستقبله ومستقبل دينه.

ثم إن الاهتمام بالمستقبل منذ القدم أمر لاتنفرد به الشعوب المسلمة، فنحن لن نطيل الحديث للتدليل على أن العناية بالمستقبل ليست بالشيء الجديد ولا الغريب على الانسان، أي إنسان، في أي وقت وفي أي زمان، لأننا لانستطيع سلخ هذا الانسان عن الزمن. فحياته خارج إطار الزمن لامعنى لها، وبدون تداول الليل والنهار وتقلب الفترات لن يجد هذا الانسان طعما للحياة، ولن يستطيع بدون إحساسه بعجلة الزمن أن يستسيغ العيش، أو أن يحس برغبة في العمل !

وإذا كانت حياة الانسان عبارة عن حركة مستمرة قُدما نحو الأمام على درب الزمن، فإن اللحظة التي يعيشها، والواقع الذي يحياه، إنما هو نقطة عابرة على ذلك الدرب، تمتاز عن سابقاتها بوجود رجليه فوقها في اللحظة التي تناسبها من ذلك الزمن ! لحظة يمتطيها الانسان في الحاضر، مستخرجا لها من منجم المستقبل، ومودعا إياها في خزائن الماضي، بشكل إجباري، سواء أحسَّ بذلك الاستخراج، وتلك المطية، وذلك التخزين، أم لم يحس بأي من هذه العمليات أو جميعها.

فالمستقبل واقع مقبل، وتاريخ مقبل أيضا، ولهذا ما زال الجدل قائمنا بين الخبراء في علوم المستقبل حول تصنيفه، هل يصنف ضمن علوم الاجتماع، أم ضمن علوم الاجتماع التاريخي ؟ وليس المهم

والدول المتقدمة اجتنابا منها لما قد يحمله المستقبل من مفاجآت، وتحسبا لكل ما يعوق تقدمها واستمرار قيادتها الحضارية، تعتمد أسلوب الادارة بالأهداف، وتضع التخطيط المحكم المبني على الاستيعاب الواعي للماضي، والاستقراء الشامل للواقع، والاستشراف الدقيق للمستقبل. ولا نعدم في عالمنا المعاصر، والجزء الاسلامي منه على الخصوص، من يسير السير العشوائي يخوض في مجالات الحياة بشكل تلقائي، ملتزما أسلوب الادارة بالكوارث، ناقلا عن غيره، مفتخرا بماضيه، معرضا عن واقعه، متفائلا بحسن مستقبله، لا يستيقظ من سباته إلا بالكوارث.

فالمتقدم يمتاز بصناعة الأفكار، وهو في صناعتها لديه المادة الخام، ولديه الآليات، ولديه السوق التي ينشر فيها البضاعة التي هي الفكر والحضارة . ولديه تصور لتطور ذلك الفكر، وإدراك لبواعث تلك الحضارة، تصور للعقبات، وإدراك للمتطلبات، وعلم بالتحديات التي يملي مواجهتها ذلك الفكر، ويشترطها ازدهار تلك الحضارة، فإذا لديه المعلومات عن ماضيه، ولديه المعلومات عن الواقع الذي يعيشه، ولديه المعلومات عن المستقبل الذي يصبو إليه.

عندنا تصنيف هذاالفن في هذا الميدان من العلوم أو ذاك، فهو أميل الى أن يكون فرعا من علوم الاجتماع أكثر منه الى علوم الاجتماع التاريخي، لكون هذا الأخير «يؤكد التنبؤات الظنية بالنسبة للماضي» مع أن «علم المستقبل يقتصر على التطورات المستقبلية الفعلية، ويستهدف تعيين مدى الاحتمال الرياضي لوقوعها أو قابليتها للتصديق» (16)، وما نستطيع الجزم به الآن هو أن علم المستقبل ليس من العلوم البحثة التي تعتمد تحليلا يوصل إلى نتائج نهائية.

كما أن المهم عندنا ليس المستقبل كزمن مجرد، فإنما هو في ذلك التجريد حركة دائمة لها مفعول الاستمرار، مستقلة تمام الاستقلال عن الانسان وإرادته، فسواء أحس الانسان بالوقت أم لم يحس به، أو أدرك تداول الليل والنهار أم لم يدركه، فإن الوقت يجري ويمضي لامستقر له. ولكن المهم، الوعيُ بالمستقبل كواقع قادم، بغية استكشاف كنهه، بل والتحكم في شكله.

فالطفل الصغير لايدرك بعداً للزمن، ولا يحس بمرور الوقت، لايعي ماضيا ولا يكثرت بمستقبل، رغم مشاركته طوعا أو كرها بني جنسه في رحلتهم الزمنية عبر دروب المستقبل. لكن بمجرد أن يبدأ هذا الطفل وهو في حركته الدائمة تلك يعي مجراه الحياتي، منتبها الى كونه ترك وراء ظهره ماضيا يحتاج الى استيعاب، وقد فتح صدره لمستقبل يحتاج الى تطلع واستشراف، وأن عينيه الآن على واقع يحتاج الى استقراء واكتشاف، فإن مخيلاته تبدأ في التطلع لرسم أشكالٍ لذلك الماضي، وذلك الحاضر، وذلك المستقبل، ينبغي أن تحلل وتصقل وتوظف لتحسين الحاضر، سواء الحاضر الآن أو الحاضر غدا. وتلك ملكة فطرية أودعها الخالق المنان، كل عاقل من بني الانسان، لايمتاز بها جنس دون آخر، ولا نرى فائدة لموضوعنا من إطالة الحديث حولها، بعد أن خلصنا وتبيَّن لنا أن الغاية من المستقبل في ميادن الدارسات المستقبلية والدافع للاهتمام به، هو الرغبة في تحديد شكله، والتحكم في زِمَامِه.

واستشراف المستقبل ليس تنبؤا بالغيب، وليس كما يقول العوام ضربا على الكف أو قراءة في الفنجان، بل هو علم من العلوم له مقومات وله فنون.

فالمستقبل لاينشأ من فراغ، وإنما تتحدد معالمه وتتبلور أشكاله من خلال تطور قضايا الواقع، ومن خلال بزوغ أشياء كانت الجنينات لها موجودة في أرض الواقع. واستشراف المستقبل ليس رجما بالغيب ولا اعتداءا على حرمات الدين، ويبدو للمسلم المتأثر بعصور التراجع الحضاري والكسوف الفكري والمصاب بداء التواكل — الذي انتشر لسوء الفهم المتواصل لمفهوم التوكل الذي نص عليه الاسلام، وسوء استخدامه له هروبا أو عجزا أو توارثا — أن الخوض فيما سيكون عليه المستقبل محكوم بمقادير الاله عز وجل، ولا يجوز للعبد الخوض فيه. ومفهوم التواكل المنتشر هذا جعل عديدا من جمهور المسلمين لايملكون ملكة التخطيط، ولا يحسنون ترتيب وتحديد الأولويات، ولا يربطون النتائج بالمقدمات.

فنحن في ديننا الحنيف مطالبون بالعمل الدنيوي لكسب مستقبل أخروي، ونعرف أن من سنن الحياة التي وضعها الله لهذا الكون، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ (الأحزاب : 62) أن التطوير المستقبلي مرهون بتغير الواقع، ﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد : 11) ، كما أننا مطالبون بالجهاد والاعداد له في جميع المجالات سواءا كان ذلك في المجال العسكري أو في المجال الاقتصادي أو في المجال الاجتماعي أو في المجال الثقافي أو في المجال التربوي، ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ورباط الخيل﴾ (الأنفال : 60). والاعداد قدر المستطاع في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والثقافي والعسكري يقتضي معرفة القدرات والامكانيات المستطاعة، وتقدير القوة اللازمة، واحتمالات التفاعل والمواجهة، وكل ذلك أمر يتعلق بدراسة بدائل المستقبل، واستشراف شكله وأبعاده، وتحديد المسارات التي تؤدي إلى أحسن تجلياته.

والدول المتقدمة اجتنابا منها لما قد يحمله المستقبل من مفاجآت، وتحسبا لكل ما يعوق تقدمها واستمرار قيادتها الحضارية، تعتمد أسلوب الادارة بالأهداف، وتضع التخطيط المحكم المبني على الاستيعاب الواعي للماضي، والاستقراء الشامل للواقع، والاستشراف الدقيق للمستقبل.

ولا نعدم في عالمنا المعاصر، والجزء الاسلامي منه على الخصوص، من يسير السير العشوائي يخوض في مجالات الحياة بشكل تلقائي، ملتزما أسلوب الادارة بالكوارث، ناقلا عن غيره، مفتخرا بماضيه، معرضا عن واقعه، متفائلا بحسن مستقبله، لايستيقظ من سباته إلا بالكوارث، بل حتى الكوارث لاتكاد تؤثر في غيبوبته الفكرية واستقالته الحضارية، فهو قد اعتاد أن يقلب الهزيمة نصرا، والكارثة خيرا، فإن أتت على هلاك 99% مما لديه، فإنه يعتبر نفسه في حل من كل محاسبة، ويستشعر الراحة التامة، لأن المصيبة لم تكن مائة بالمائة !!

حتى في ميدان العلوم — وما زلنا نعيش قرونه العجاف — فإنه لايتحرك ليستشرف مستقبله ويغير واقعه، كي يكون البحث العلمي متميزا لديه، متفوقا فيه على غيره، مشاركا في إجلاء سنن الكون ورفع معالم الحضارة، مشاركا في نضج الفكر، فإن قيل له تحفيزا إن المركز الفلاني أو العالم الفلاني اكتشف سنة الله في كذا، اجتهد اجتهادا ضئيلا ليقول أن ذلك الشيء المكتشف هو موجود في القرآن منذ أربعة عشر قرنا، وكتب في ذلك الكتب ليثبت أن هذا الشيء هو موجود فعلا في القرآن منذ قرون من الزمان، ونسي أنه بفعله ذلك إنما أشهد الله على نفسه وأشهد الناس أنه ظل نائما منغمسا في نومه قرابة أربعة عشر قرنا (17).

وكم مرة سمعنا المثل المشهور «الوقاية خير من العلاج» دون أن ندرك البعد الاستراتيجي والبعد المستقبلي لتلك الوقاية، وتلك الحماية، لكل ما من شأنه أن يعطل القوى ويضر بالجسم، جسم الفرد، أو جسم التنظيم، أو الدولة، أو الهيئة، أو الأمة.

فالتحكم في المستقبل استشرافا وتخطيطا أسلم للانسان والانسانية من ولوج المستقبل صداما وكارثة، ومن هنا كان الاهتمام عند علماء المستقبل شديدا بالمشكلة السكانية، ومشكلات التلوث وإهدار الطاقات وغيرها من المشاكل التي ترعب حين التفكير في مستقبلها على افتراض استمرار تطورها الحالي !

والتفكير في المستقبل يكون بعيدا عن الأحلام، وأضغاثها، لأنه قراءة للواقع من خلال المستقبل، وليس اهتماما بالمستقبل من أجل الاكتفاء بالتخمين فيه والتنبؤ بأحداثه ! فما منفعة هذا التخمين وذلك التنبؤ إذا لم ينعكس على الواقع فيغيره نحو الوجهة المثلى ؟

وما الواقع إلا محصلة تطور تاريخي طويل، تفهم تجلياته من خلال تحليل حقب التاريخ السابقة له، والتي كانت تحمل البذور الجنينية التي أفرزته ! وبالتالي فإن شكل الواقع يوحي بشكل المستقبل، ومن سعى إلى تغيير حاضره نحو مستقبل زاهر ومشرف، فإنه يعد لذلك العدة، ويرسم له الخطة، ويرصد له الامكانيات، ويقوم بالتنفيد حسب ما حدده من أولويات، أما من كان في حاضره أعمى، فهو في مستقبله أعمى وأضل سبيلا !

والمجال الأسمى للاستشراف هو استشراف مستقبل التربية، فما دامت التربية هي قوام الحضارة ولبها، وهي أساس الفكر حسب المفهوم الذي حددناه سابقا، ومادامت هي نفسها عملية مستقبلية بحكم اهتمامها بإعداد أجيال المستقبل، فإن استشراف المستقبل في جميع المجالات سواءا أكانت اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو عسكرية مرتبط ارتباطا عضويا ومحكما باستشراف مستقبل التربية.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه في سمو مكانة التربية في مجال الدراسات المستقبلية كون الدراسات التي أجريت على الصعيد العالمي والعربي، والتي سنتكلم عنها فيما بعد (18)، أثبتت أن التغيير المرتقب، واجتناب الكوارث المحتملة، يقتضي القيام وبعجالة بأمرين :

— اتخاذ القرارات السليمة والحكيمة من طرف أصحاب القرار.

— وإعداد أفراد المجتمع وتكوينهم تكوينا يتجانس مع التغيير المطلوب، ويستجيب للحاجيات الملحة.

ولهذا كان اهتمام الدول المتقدمة بمستقبل التربية وتربية المستقبل شديدا ومكثفا، تعقد له الندوات، وتقام من أجل انجازه المؤسسات، وترصد له اللوازم والحاجيات، ويحتل في خطط الانجاز أعلى سلم الاولويات.

ثم إن الواقع لايعدو أن يكون هو بنفسه محصلة تطور تاريخي طويل تفهم تجلياته من خلال تحليل حقب التاريخ السابقة له، والتي كانت تحمل البذور الجنينية التي أفرزته، وبالتالي فإن شكل الواقع يوحي بشكل المستقبل، ومن سعى الى تغيير حاضره نحو مستقبل زاهر ومشرف، فإنه يعد لذلك العدة، ويرسم له الخطة، ويرصد له الامكانيات، ويقوم بالتنفيد حسب ما حدده من أولويات، أما من كان في حاضره أعمى، فهو في مستقبله أعمى وأضل سبيلا !

ولذلك فإن موضوعنا حول استشراف مستقبل التربية يتداخل والتخطيط لمجالات أخرى ترتبط بالتربية إن لم تكن موقوفة عليها. ويفهم القارىء لماذا اخترنا في حديثنا عن استشراف مستقبل المجتمع الاسلامي، التربية نموذجا، مدركا أن لا مستقبل للمجتمع بدون تطوير وتحسين للتربية.

ونود أن نشير في آخر هذا الفصل أننا لا ندعي التنبؤ بما سيكون عليه حال التربية بعد سنوات أو قرون، فإنما علم ذلك عند الله عالم الغيب سبحانه، بل هدفنا في هذا البحث عرض المنهج العلمي للتخطيط المستقبلي بشكل عام، والتربية منه بشكل خاص، حتى نستجيب لدعوة الله عز وجل في الاعداد للغد، دنيا وأخرى، دنيا ننعم فيها بانتشار العلم وتحقيق العدل، في مناخ من الحرية يشجع على تطور المعارف والعلوم، وجو نقد بناء وسليم يساهم في مراجعة المسارات وتحديد التوجهات، وأخرى نكسب فيها رضى الله في الاستجابة له والايمان به، وحسبنا تحفيز وتشجيع القارء لهذه الوجهة، والله من وراء القصد.

(يتبع)

محمد بريش

مهندس مدني في قطاع الطرق

الرباط ـــ خريف 1410 هـ / 1989 م

1) الأساليب والأنماط الادارية المشهورة في ميدان التدبير والتسيير هي :

أ ـــ الأنماط الايجابية :

* الادارة بالأهداف (نمط مشهور تحت لفظ MBO : Management By Objectives).

* الادارة بالأهداف والنتائج (نمط مشهور تحت لفظ Management By Objectives and Results MBOR).

* الادارة بالاستثناء (نمط مشهور تحت لفظ MBE : Management By Exception).

* الادارة بالتفويض (نمط مشهور تحت لفظ MBD : Management By Delegation).

ب ـــ الأنماط السلبية :

* * الادارة بالكوارث (نمط مشهور تحت لفظ Management By : Catastrophes MBC).

* الادارة برد الفعل (نمط مشهور تحت لفظ MBR : Management By Reactions).

وهذا النمط الأخير من الادارة يختلف عن إدارة الأزمات التي تعنى بعملية اتخاذ قرارات سريعة في مواجهة موقف طارىء تحت ثلاثة ضغوط حادة وهي : ضيق الوقت، التهديد باستخدام القوة والعنف، عدم توفر المعلومات الكافية للتصول إلى حل أو تسوية، وهو مفهوم من الادارة معمول به خاصة في ميدان العلاقات الدولية (انظر د. السيد عليوة، إدارة الصراعات الدولية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص 403 ـــ 425).

ولقد انشغلت المؤسسات العامة الأمريكية بفلسفة الادارة بالأهداف في الثلاثينات من هذا القرن، إلا أن التعبير لم يعد شائعا إلا بعد نشر بيتر دراكار Peter Drucker لكتابه المعروف «الأداء الاداري Pratice of Management» في سنة 1945، لكن الفضل يرجع لجورج أو ديورن G.Odione، وجون همبل John Humble المستشار البريطاني في بلورة هذا النمط وتنوير الأمريكيين بنتائجه وأبحاثه.

وفي منتصف السبعينات، أصبحت فلسفة الادارة بالأهداف محط أنظار مجموعة من المديرين خريجي جامعة هارفارد لاعتقادهم أن من شأنها أن تبلور استراتيجيات أفضل، وتساعد على الوصول إلى قرارات أحسن، وتقلل من الروتين، وتستزيد من الدوافع، وتضاعف قدرة الاداري على إحكام الرقابة في التنظيم (انظر في هذا الصدد «الادارة بالأهداف والنتائج» للدكتور فيصل فخري مرار ـــ المنظمة العربية الادارية، عمان ـــ الأردن 1981، ص 23 و24)، وكذا «الادارة بالأهداف والنتائج» للدكتور سيد الهواري، القاهرة، مكتبة عين شمس، الطبعة الأولى 1976. وخاصة كتاب «Management By Objectives in action» للأستاذ جون هامبل John Humble، 1971، وكذلك عديدا من أعداد مجلة العلوم الادارية التي تصدرها المنظمة العربية للعلوم الادارية.

والتعريف الذي قدمناه هو تعريف عام، وقد تجنبنا فيه العرض الأكاديمي للمفهوم المتداول نمط الادارة بالأهداف والخوض في مركباته الخمس :

تحديد الأهداف، الخطط، التوجيه، الرقابة، التغذية العائدة.

ويرجع لذلك في مظانه لمن أراد مزيدا.

2) كلمة «استراتيجية» ليست عربية، وإنما هي اللفظ المعرب لكلمة Statégie الفرنسية أو Stategy الانجليزية. وأصلها في هذين اللغتين من الكلمة اللاتينية Stratêgos، من Stratos وهو الجيش وفعل agein بمعنى قاد، وبهذا تكون كلمة Stratêgos هي قائد الجيش، وStratêgia هي فن قيادة الجيش، أو فن قيادة الحروب، ثم اتسع استعمال المصطلح خارج الاطار العسكري ليصبح دالًا على البراعة في التخطيط أو التدبير في جميع المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والاعلامية.

أما مفهوم «التخطيط الشامل» والذي أضحى موازيا للمفهوم المتسع الذي أصبح يحتله مصطلح «الاستراتيجية»، فهو يعني التخطيط لكل الموارد الاقتصادية والبشرية لتحقيق أهداف الدولة العليا، إلا أن الاستراتيجية تمتاز بكونها ليست برنامجا ولا خطة، بل أسلوب عمل، ومنهجا وسياسة.

3) الحضارة لغة تقابل البداوة، ولها عند كل قوم طابع يميزها وروح يسرى فيها، ناتج عن تصورهم للوجود والكون والحياة والقيم. ولعل أهم من أبدع في دراسة مفهومها ومشاكلها المعاصرة المفكر الاسلامي مالك بن بني رحمه الله (انظر سلسلة مشكلات الحضارة ـــ ندوة مالك بن نبي الصادرة عن دار الفكر (ميلاد مجتمع، شروط النهضة، مشكلة الثقافة، الصراع الفكري، تأملات، وجهة العالم الاسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد، بين الرشاد والتيه، الظاهرة القرآنية، مشكلة الأفكار، حديث في البناء الجديد،

في مهب المعركة، مستقبل الاسلام،...). واستمرت مدرسته الحضارية في الانتاج واتسعت، ومازالت تتسع، بشكل ساهم في إخصاب الفكر الاسلامي المعاصر إخصابا ثريا (انظر مثلا «ثغرة في الطريق المسدود : دراسة في البحث الحضاري» للدكتور سيد دسوقي حسن والدكتور محمود محمد سفر، سلسلة آفاق الغد، القاهرة، الطبعة الأولى 1981، و«مقدمات في البحث الحضاري» للدكتور سيد دسوقي جسن، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى 1987، و«الحضارة تحد» للدكتور محمود محمد سفر، جدة، تهامة 1400 هـ، و«دراسة في البناء الحضاري : محنة المسلم مع حضارة عصره»، سلسلة كتاب الأمة، عدد 21، الدوحة، الطبعة الأولى : رجب 1409 هـ، و«المسلمون والبديل الحضاري» للدكتور طه جابر فياض العلواني، رابطة الشباب المسلم العربي، سلسلة البحوث والدراسات، الطبعة الأولى 1988). وللتوسع في موضوع الحضارة، يمكن مراجعة الكتاب الافتتاحي لسلسلة «عالم المعرفة» الكويتية، للدكتور حسين مؤنس بعنوان «الحضارة» يناير 1978.

ولقد أشرنا إلى هذه العناوين لتوجيه الراغب في المزيد من الدراسة والتنقيب عن أبحاث ودراسات لها وزنها وقيمتها في المجال العلمي، ولكون هذه البحوث أجمعت على أن التربية هي مخ الحضارة، وبدون تطويرها وتحسينها لا أمل في البعث الحضاري.

4) كلمة مسرح هنا ليست مستعملة بمعنى منصة أو تقديم لفن التمثيل المعاصر، بل بمفهومها العربي القديم، أي مرعى السرح، وهو الموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعي (انظر «لسان العرب» لابن منظور، طبعة دار صادر، بيروت، المجلد 2، ص 478)، وبهذا التحديد يكون الفكر غير وعاء المعرفة، بل هو الأرض الخصبة والبنى التحتية التي منها وبها تنتج المعرفة وتنضج ثمارها. وينطبق ذلك مع ما ذهبنا إليه من ضرورة النهل من المصدرين الأساسيين : الوحي والكون، فهما الغيث والسمد لهذا المسرح كي تثمر فيه ثمار الأفكار وتزهر فيه ألوان المعرفة، وتحصل فيه ومن خلاله عمليات التدبر والتذكر المطالب بها الانسان العاقل. والمتأمل لما جاء في صيغ فعل فكَّر في القرآن الكريم، يجد أنه استعمل بصيغة الماضي حينا، والمضارع حينا آخر، تنبيها للوظيفة العملية للفكر، ودعوة إلهية مستوحاة للابتعاد عن الخوض في متاهات الفكر المجرد.

5) يراجع حول هذا المفهوم البحث القيم الذي بدأ نشر حلقاته في العدد 19 من مجلة «الهدى» بعنوان «مفاهيم العدل والظلم في القرآن الكريم» للأستاذ مصطفى بن الشيخ فضيل، والمنشورة حلقته الثانية في هذا العدد [انظر «الهدى»، عدد 19، أكتوبر 1988، ص ص : 5 — 12].

6) يمكن فى هذا الصدد مراجعة الكتاب المبسَّط والمفيد الذي أصدرته «المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الاسيسكو) بعنوان «مقدمة في التربية وعلم النفس»، تأليف الدكتور عبد الرحمن النقيب والدكتور صلاح مراد ومراجعة الدكتور محمدْ ناصر، الرباط 1987، وخاصة منه القسم الأول المتعلق بالتربية، ص ص : 11 — 90.

7) المرجع السابق، ص 21.

8) رئيس التحرير المساعد لمجلة «فورتشن» وقت نشره لكتاب « صدمة المستقبل». كان أستاذا زائرا بجامعة كورنيل، وعالما زائرا في مؤسسة راسل سيدج. نشرت له كتب كثيرة من بينها «مستهلكو الثقافة»، و«المدرسة في المدينة»، وعديد من المقالات العلمية في كبريات المجلات العلمية المتخصصة، وتعتبر دراسته حول «صدمة المستقبل» الأولى من نوعها في مجال «سوسيولوجيا المستقبل».

9) Alvin Toffler, futur shock, Random House, New York, 1970.

وقد ترجم الى العربية من طرف محمد علي ناصف، وتقديم الدكتور أحمد كمال أبو المجد وقت كان وزير الاعلام بالحكومة المصرية، تحت عنوان «صدمة المستقبل»، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، يوليوز 1984.

10) للمزيد من المعلومات حول مصطلح «المستقبلية» للتعبير على الاتجاه الفني المتطرف الذي ذكرناه، راجع :

* «سوسيولوجيا المستقبل بين المستقبلية وعلم المستقبل»، خلدون الشمعه، الفكر العربي، السنة الأولى، عدد 10، مارس — أبريل 1979، ص ص : 210 — 215.

* «من معالم الابداع المستقبلية كظاهرة فنية جمالية»، د.ميشال سليمان، الفكر العربي المعاصر، العدد 13، يونيو — يوليوز 1981، ص ص : 23 — 29.

11) راجع حول مفهوم هذا المصطلح العدد الخاص من «رسالة اليونسكو» بالفرنسية (Le courrier)، أبريل 1971، والذي كان موضوعه «هل للمستقبلية من مستقبل ؟»، وخاصة موضوع روبير جنك (Robert Jungk) «لقد بدأ المستقبل»، ص ص : 9 — 17.

12) «المنجد في اللغة والاعلام»، دار المشرق، بيروت، الطبعة 26، 1975، ص 383.

13) يقصد ابن منظور الشاعر الحسين بن مُطَيْر الأسدي (توفي سنة 169 هـ)، شاعر متقدم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وله أماديح في رجالهما (انظر موسوعة «الاعلام»، لخير الدين الزركلي، المجلد 2، ص 260، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، 1970).

14) «لسان العرب» لابن منظور، دار صادر، بيروت، المجلد 9، ص 171 و172.

15) «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1986 (في مجلد واحد) ص 1065.

16) «علم المستقبل في وقتنا الحاضر»، د.محمود زايد، الفكر العربي، السنة الأولى، عدد 10، مارس — أبريل 1979، ص 26.

17) لانريد هنا أن نستنقص من جهود علمائنا في مجال التفسير، أو غيرها من المجالات التي تبرز دور الاسلام في دفع عجلة العلم والمعرفة والابتكار والابداع طوال التاريخ العريق للحضارة الاسلامية. ولكننا نستغرب مع المستغربين لأولئك الذين يريدون تعسفا تحميل الآيات القرآنية مالم تُنزَّل من أجله، ويجعلون للقرآن تفاسير غامضة تتلقف كل اختراع جديد تبث نظريته لمقارعة سنن الكون مع مرِّ الزمان أم لم تتبث !

18) في الفصل السادس : الحصيلة، والذي سنعرض فيه لحصيلة الدراسات المستقبلية الهامة التي أجريت في العالم الغربي والعالم العربي.

ملف التربية
- 4 -

نحو إصلاح ثقافي شامل

للأستاذ محيي الدين عطية

مقدمة :

تتصل الثقافة بالاعتقاد، والفكر، والمعرفة، والذوق، والسلوك، فإذا استعرضنا هذه الأبعاد في واقع أمتنا الاسلامية، لتبين لنا في وضوح كيف أن ثقافة الأمة قد زيفت، ومازالت تزيف، وكيف أنه لابد من استراتيجية لثورة ثقافية إسلامية لاستعادة الذات.

والتبديل الثقافي، بهذه الأبعاد، إنما هو تنقية للعقيدة مما لحق بها من خرافات، وإصلاح لمناهج الفكر المتخلفة، وإعادة طرح للمعرفة من منظور إسلامي، وترقية للذوق العام في اتجاه الأصالة، وإصلاح لمسار التربية والسلوك.

في مجال العقيدة:

إن مظاهر الانحراف العقدي تنتشر حيث يسود الجهل. ومالم تلتحم استراتيجية محو الأمية مع خطط تنقية العقيدة، فستظل مساحات واسعة من القارتين الافريقية والاسيوية — حيث ترتفع نسبة الامية — أسيرة للخرافات والانحرافات العقدية.

وإذا كنا نسلم بأن الاعلام الهابط يلعب دورا في تشويه العقيدة، فإن علينا أن نعيد النظر في مفهوم الرقابة على المصنفات والبرامج والوسائط الاعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية، بحيث ننتقل من مرحلة «مقص الرقيب» الذي قد يحذف الكلمات النابية، والمناظر الجارحة، ويصادر الكتب الخليعة، الى مرحلة التوجيه والترشيد والتقنية الاصولية من شوائب ومخلفات وتشويهات عصور الانحطاط والاستعمار والتبعية.

وقد تسهم بعض الأنظمة الحاكمة في تشويه عقيدة الامة والعمل على استبقاء ما أصابها من عوج وخرافية ووهن، ضمانا — في نظرها، لاستقرار أمني متوهم، قائم على تقرير مصلحي ضيق واناني. فعلى علماء الامة أن يبينوا لها ولصانعي السياسات القاصرة، خطر هذه الممارسات المغذية لمظاهر الشرك والدجل والشعوذة، وأن يرسخوا العقيدة الصحيحة في عقول جماهير المسلمين.

وقد يلجأ بعض المتنفذين وتابعيهم الى استجداء تأييد الناخبين بمجاراتهم في خرافاتهم، على مرأى ومسمع من العلماء والمفكرين، ولن يحد من أثر ذلك إلا حملات التوعية الدينية التي يجب أن تواكب حملات الدعايات الانتخابية، لتنبه الناس الى ما ينفعهم، وتميز لهم الخبيث من الطيب من القول.

وإذا كان بعض العلماء عاجزا عن محاربة مظاهر الشرك والانحراف، لضعف مركزه الاجتماعي الذي حجمته السلطة ضمانا لعدم تطاوله على سوءات النظام، فإن مكانة العلماء يجب أن تعود الى سابق عهدها، يوم أن كان الحكام يسعون الى مجالس أهل العلم، وأمر هذه المكانة منوط بالعلماء أنفسهم، إذ تسرى عليهم سنة الله الخالدة، التي تقضى بأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

في مجال الفكر :

من مظاهر الفساد الفكري في امتنا شيوع مفهوم التواكل استنادا مريضا الى قيمة التوكل التي امتاز بها الاسلام ودعا اليها، فأسأنا فهمها واستخدامها. كما تفشى الفكر الغيبي الذي يحيل قضايا الانسان الدنيوية الى الغيب — عن وعي أو عن جهل — استنادا مريضا الى الايمان بالغيب، الذي جعله الاسلام ركنا من الاركان، فأسيء استخدامه، هروبا، أو عجزا، أو توارثا متراكما منذ بداية التخلف.

ولعل إزالة الغبش والخلط بين التوكل والتواكل، وبين ما هو غيبي وما هو من عالم الشهادة، هي مهمة فكرية في الدرجة الأولى، يقع عبؤها على كاهل الكتاب والصحفيين وكتاب «السيناريوهات» الذين أصبحوا أعلى نبرة وأعمق تأثيرا في وجدان العامة، الا أنها مهمة تربوية أيضا، يجب أن يضطلع بها العربون في المراحل المختلفة، وأن يستهدفها واضعو المناهج ومحررو الكتب الدراسية والقائمون على تدريسها.

إن عدم ربط النتائج بمقدماتها، أو ترتيبها على غير مقدماتها، آفة أخرى من آفات العقل العربي والاسلامي المعاصر، ولعل تشوش النظر السببي والتعليلي ينبىء عن سابق خلل تربوي في مراحل التنشئة الأولى. وهذا هو أول ما يجب ان تتجه الجهود الى إصلاحه، وأن يتكاثف واضعو المناهج التعليمية على بحثه وتحليله، والا يستثنى من ذلك منهج التربية الاسلامية، بل لعله أولى من غيره بالعناية والترشيد والتطوير.

وهناك ظاهرة مرضية تصل الى درجة الوباء الفكري، هي ضياع حس الأولويات، وفقدان ملكة التخطيط، بحيث نرى أن التافه من الامور كثير ما يتقدم على ماهو أهم وأخطر، وذلك في حياة الفرد وفي نظام المجتمع على السواء. ولن يصلح اضطراب الاولويات إلا غرس المنطق وتعهده في ساحتنا الثقافية منذ تفتح مدارك أطفالنا، ومنذ احتكاكهم بالحياة. وعلينا أن نتوقف عن تلقين المنطق المجرد المعزول عن ممارسة التفكير والتخطيط لقضايانا الحياتية.

ومما ساهم في جعل عقول عامتنا أحادية النظر، عقيمة الانتاج، انحسار الموضوعية وسقوط الفكر أسيرا للانبهار أو أسيرا للرفض. والتفكير الموضوعي لا يقوم وحده ولا يبدأ من فراغ، بل يلزمه تدريب عقلي واخلاقي متواصل. فالموضوعية موقف وارادة قبل أن تكون قدرة عقلية مدربة. ولن يكون للخطط التربوية حظ كبير من النجاح مالم تكف وسائلنا الاعلامية عن تساهلها في نشر وترويج «الغوغائية» و «الديماغوجية» دون وعي بنتائجها السلبية على نسق التفكير والتحليل والحوار، وهذا ما يحتاج الى رقابة ذاتية مسؤولة.

ولعل ضعف وهامشية الفكر الابداعي — عندنا — جاء نتيجة لتفشي العقل «الاسنادي» الذي يجبن عن ارتياد آفاق جديدة غير مسبوقة، ولا يتحرك إلا مستندا إلى سابقة معتمدة.

والابداع وليد الاجتهاد. والاجتهاد مناخ متكامل يحتاج الى الحرية والانطلاق بقدر ما يحتاج الى التزود والتأصيل. ولا يرضى أحد برفع الضوابط عن المجتهدين، ولكننا لا نرضى أيضا بتسليط سيف «شروط المجتهد المطلق» على الرقاب، تلك الشروط التي لم تعد تناسب عصر الاجتهاد الجماعي، المخدوم بأحدث التقنيات.

وقد تسهم بعض الأنظمة الحاكمة في تشويه عقيدة الأمة والعمل على استبقاء ما أصابها من عوج وخرافية ووهن، ضمانا — في نظرها، لاستقرار أمني متوهم، قائم على تقرير مصلحي ضيق وأناني. فعلى علماء الأمة أن يبينوا لها ولصانعي السياسات القاصرة، خطر هذه الممارسات المغذية لمظاهر الشرك والدجل والشعوذة، وأن يرسخوا العقيدة الصحيحة في عقول جماهير المسلمين.

في مجال المعرفة

أما «اغتراب» المعرفة المعاصرة فقد جاء نتيجة طبيعية لنشأتها في بيئة غربية، ونموها وتطورها خارج عالمنا الاسلامي، ولم يك لنا فيها إسهام كما كان الحال مع الآباء والاجداد.

ولن يزول «اغتراب» المعرفة عنا و «اغترابنا» عنها الا بامتلاكها، امتلاك تفهم لجذورها، وتحليل لمضمونها، وإحاطة بنظريتها ومدارسها، ورؤية واعية لما هو ثابت فيها بحكم الفطرة والنواميس الكونية والبشرية المكتشفة، وماهو نتاج الفكر والنظر الانساني المحدود بحدّي الزمان والمكان.

ثم جاء التمزق والانشطار المعرفي نتيجة منطقية لازدواج الثقافة، منذ انفصل التعليم الديني عن التعليم المدني، بتخطيط خارجي في مرحلة الاستعمار، وباستسلام وسلبية عاجزة في مرحلة التبعية التى ما زلنا نعيش بعض مظاهرها.

وازدواج الثقافة قائم وباق ما بقي النظام المزدوج للتعليم في بلادنا، ذلك النظام الذي يحميه سدنة تربوا وفق معطياته، فهم يحافظون على استمراره لأن فيه استمرارهم — إلا من عصم الله ممن

اتجهوا تطوعا الى الجانب الآخر من الثقافة يكملون به نقصهم، ويتفوقون به على قرنائهم ــ وبذلك أصبحنا ولا مناص من ثورة تعليمية جريئة تنقض الاساس، وتضع أساسا جديدا للتعليم، يجمع الدين والدنيا معا في نسق حضاري مواكب للعصر، ومنطلق من الاصول. ولن يغني هذا عن ضرورة وضع استراتيجية لمرحلة الانتقال، تواجه الواقع بطرح البدائل على مائدة البحث والتداول والحوار.

لقد انحسرت مصادر المعرفة تاركة الوحي في دائرة مغلقة. واقتصرت على العقل وحده متجولا فيما حوله من ظواهر الكون، فضلّت وأضلّت. وقد يتطلب الامر ــ علاجا انتقاليا لهذه الظاهرة استحداث نوع من المعاهد التي تقدم زادا من المعرفة الشرعية لحملة الدرجات الجامعية في مختلف فروع المعرفة. إن هذه المحاولة المرحلية ــ إذا ارتبطت ببنية النظام الجماعي ارتباطا عضويا ــ قد تسهم في الحد من انتشار الثقافة العرجاء القائمة على العقل دون الوحي، وقد تنتج رجالا يمكنهم أن يسهموا في إعادة طرح وصياغة علومهم ــ خاصة الانسانية والاجتماعية ــ من منظور اسلامي، يهتدي بالاصول، وينتفع بالوافد، ويخدم الواقع في منظومة واحدة.

ولعل من بين أمراضنا المعرفية أن معظم العلماء والباحثين لم تعد تحكمهم اخلاقيات العلم التي تضرب جذورها في القيم الاسلامية الخالدة، وانما تحكمهم نظريات البحث العلمي وضوابطه النسبية المتلقبة، هذا إذا سلموا من التدخل والتسييس وتوجيه أبحاثهم لنتائج مسبقة مستهدفة من صناع القرار السياسي في بلدانهم.

إن مد جذور الأخلاق العلمية الى تربتها الاسلامية، يضمن لها الاستمرار والنماء والصمود، ويحوّل مختبر العالم الى محراب عابد متبتل بعلمه، متقرب الى الله بمنجزاته. ومن هنا تحتاج العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء، الى مقدمات تربط أهدافها بأهداف الانسان المسلم في الحياة، من أحد طرفيها، وتفتح بابها على واقع المجتمع من طرف آخر.

لقد ابتُليت المعرفة زمنا بمقولة «العلم للعلم» فأهملت العلوم وغاياتها، وانفصل العلم عن الواقع، فنحى عن مكان الريادة في مجتمعاتنا، وفقد العلماء مكانتهم عن جدارة.

وقد تحول تراثنا العلمي من تراكم للخبرة والممارسة التاريخية منذ عهد الرسالة حتى اليوم، الى ثوابت مقدسة، يُتبرك بتحقيق مخطوطاتها، وطباعتها، وتزيين مكتباتنا بها، دون كبير تمييز بين غثها وسمينها.

وما أجدر مراكز المخطوطات وإحياء التراث وتحقيقه في عالمنا الاسلامي وخارجه أن تمد جسور التعاون بينها، لعلها تتمكن يوما من التخصص بدلا من الازدواج والتكرار، وان تعزز طاقاتها البشرية بالعلماء والباحثين الذين يمكنهم أن يعكفوا على الصالح من تراثنا، تصنيفا وتبويبا وفهرسة وتكشيفا وتيسيرا له بين يدي طلاب العلم في المجالات المعرفية المعاصرة. إن هذه الخدمات تزيل عن الباحثين غربتهم عن التراث، وتقدم لهم ــ في يسر ــ ما ينفعهم منه في تخصصهم، بهدف الاطلاع «الناقد» عليه، والاستهداف الواعي به، دون انقياد له، أو تقديس لما ليس من طبيعته التقديس.

إن فساد الذوق وتزييفه، تشهد به أزياؤنا التي لا تناسب طقس بلادنا، وأبنيتنا التي صممت لنمط غير نمط حياتنا، وملاهينا التي انتزعت من بيئتها وغرست غرسا في أرضنا، فكنا بذلك كله كمن حشر حشرا في غير مقعده، وبدلا من أن يرفضه ويبحث عن مقعده الضائع ظل يتسم ببلاهة محاولا أن يعيد تشكيل نفسه على غير طبيعتها.

في مجال الفن

إن فساد الذوق وتزييفه، تشهد به أزياؤنا التي لا تناسب طقس بلادنا، وأبنيتنا التي صممت لنمط غير نمط حياتنا، وملاهينا التي انتزعت من بيئتها وغرست غرسا في أرضنا، فكنا بذلك كله كمن حشر حشرا في غير مقعده، وبدلا من أن يرفضه ويبحث عن مقعده الضائع ظل يتسم ببلاهة محاولا أن يعيد تشكيل نفسه على غير طبيعتها.

وعافت آذاننا موسيقى غيرنا زمنا، ثم اعتادتها زمنا اخر، ثم لها بعد حين، فكان ذلك إيذانا بانخلاع أذواقنا من جذورها.

وانصرف فنانونا التشكيليون عن الابداع في تصميم أدوات حياتنا الى التهويم واللهاث خلف مدارس غريبة لم يقر لها قرار في بلادها، فكانت اعمالهم أكثر الاعمال غربة وشذوذا عن الاذواق.

إن بعض أقطارنا الاسلامية حافظت على زيها القومي ــ ابتداء برأس الدولة ورموزها المعبرة ــ ولكن البعض الاخر مازال يبحث عن زيه المناسب، وتزدحم طرقات مدائنه «بكرنفال» من الازياء، فينشأ الجيل حائرا مستلبا. ولو أولت مؤسساتنا الثقافية اهتماما بالامر ــ مدعوما من الدولة وإمكاناتها المالية بوجه خاص ــ لوجدت سبلا كثيرة لتشجيع ونشر الانماط الاصيلة في البناء والكساء ووسائل الترفيه.

إن استعارتنا للكلمات الاجنبية بافتخار، لنضعها على الحوانيت والشوارع والمدن، بل ولنسمي بها أبناءنا وبناتنا، لهو مرض سار في أذواقنا قبل أن يمس هويتنا وينتقص منها. وإذا كانت بعض أقطارنا حسمت هذا الامر بالتشريع، إلا أنه أعمق وأخطر من أن تعالجه عصا السلطان.

فعلاجه الاول داخل انفسنا، ذلك أن الذي يطلق على مؤسسته إسما فرنسيا، أو يسمي ابنه أو ابنته بإسم أمريكي، ويلوك لسانه بعض الالفاظ الاجنبية عندما يتحدث، عليه أن يعيد النظر في موقفه من الانتماء الوطني، بل والكرامة الشخصية واحترام الذات. وعلى المفكرين والكتاب والمربين كشف هذه التشويهات النفسية وشجبها وإدانتها جنبا الى جنب مع الدعم التشريعي والاداري من جانب الدولة.

إننا نخدع أنفسنا عندما نعتقد بأن أبناءنا تربوا في أحضان نظام تربوي معين، لأننا نعلم أن الساعات القليلة التي يقضونها كل يوم بين جدران المدارس، لا تسهم في تشكيلهم إسهاما يذكر، هذا إذا افترضنا أن ما يبث فيها هو ما نريده فعلا لأبنائنا. وبافتقاد القدوة والمثال، فقدت التربية أهم أسلحتها المؤثرة، وحار الناشئة بين القيم التي تتلى عليهم وبين النماذج المناقضة لها، والتي يعايشونها في البيت والمدرسة، لاسيما إذا كانت من أقرب الناس إليهم.

في مجال السلوك

لم يعد السلوك ناتجا عن تنشئة أسرية في البيت ــ فقد انشغل الابوان عن أبنائهما ــ ولا وليدا لتربية نظامية في المدارس ــ فقد ضعفت وضعف تأثيرها ــ ولا قاصرا على الاثنين معا ــ فقد اقتحم الاعلام بجيوشه الكاسحة ميدان التربية ــ وأصبح هو المعلم الاول بحكم تأثيره، والمفضل بحكم إثارته، والمهيمن بحكم سلطان الدولة واحتكارها لوسائل الاعلام. فاجتمعت له أسباب التمكن، في غفلة من علماء التربية والنفس والاجتماع.

إننا نخدع أنفسنا عندما نعتقد بأن أبناءنا تربوا في أحضان نظام تربوي معين، لاننا نعلم أن الساعات القليلة التي يقضونها كل يوم بين جدران المدارس، لا تسهم في تشكيلهم إسهاما يذكر، هذا إذا افترضنا أن ما يبث فيها هو ما نريده فعلا لأبنائنا.

وبافتقاد القدوة والمثال، فقدت التربية أهم أسلحتها المؤثرة، وحار الناشئة بين القيم التي تتلى عليهم وبين النماذج المناقضة لها، والتي يعايشونها في البيت والمدرسة، لاسيما إذا كانت من أقرب الناس اليهم.

ولا يرى الناشئة أمامهم نسقا واحدا للسلوك المتحضر، بل أنساقا شديدة التباين فيما بينها. ناهيك عن احتمال تناقضها مع القيم التي لقنوها منذ نعومة أظفارهم.

إن ذلك التخلف التربوي، والفشل في إنتاج مواطن مسلم متحضر قادر على امتلاك حياته ومصيره بيديه، لابد أن تحشد طاقات المخلصين من أبناء هذه الامة، لمواجهته بجرأة وجدية وإيجابية.

لقد خطت أمتنا في ذلك بعض الخطوات عندما أنشأت مراكز البحوث في أكثر من عاصمة، وأقامت العديد من اللقاءات العلمية لطرح الافكار وتداولها، إلا أن المنطلق الاسلامي غائب عن بعض هذه الجهود، مما يهدد أعمالها بالاقليمية والتبعية والتشرذم والتسييس.

خاتمة :

إن الامل معقود على المخلصين الصادقين من أبناء هذه الامة، أن يهبوا حياتهم في سبيل بعث وإحياء واسترداد هوية الامة الاسلامية وثقافتها. ومعقود على المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة وغيرها من المؤسسات المتخصصة، كوعاء لتنسيق هذه الجهود وترشيدها وتوجيهها لتصب في مشروع ثقافي إسلامي شامل. واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأعداد
من 11 إلى 20
من مجلة الهدى


الهدى
محور العدد
الدين والتجديد
التغيير في إشكالية الاصلاح / التجديد بالمغرب خلال القرن 13هـ / 19م
الدين والتجديد
وقفات مع محمد أركون من خلال إنتاجه وفكره
ملف خاص عن رمضان

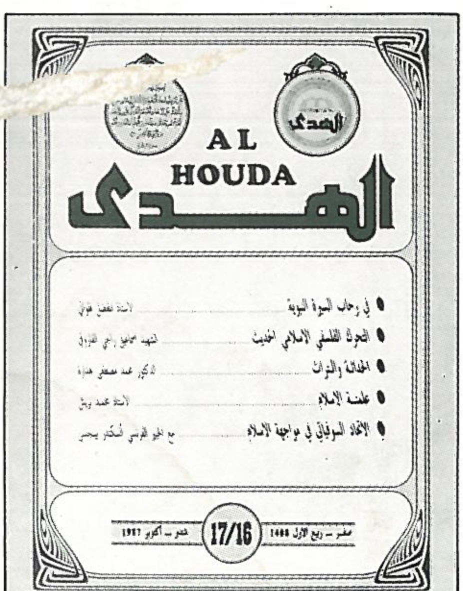

ثقافية جامعة
الهدى
في هذا العدد
نقطة البداية في علاج أدواء الأمة
لا يدخل الجنة قتات
في رحاب السيرة النبوية
حقوق المتهم في الإسلام
حاجتنا إلى علم أصول الفقه
وللتضامن شروط
حطين في سياق الحروب الصليبية
علمنة الإسلام : المقاول الثقافي
18

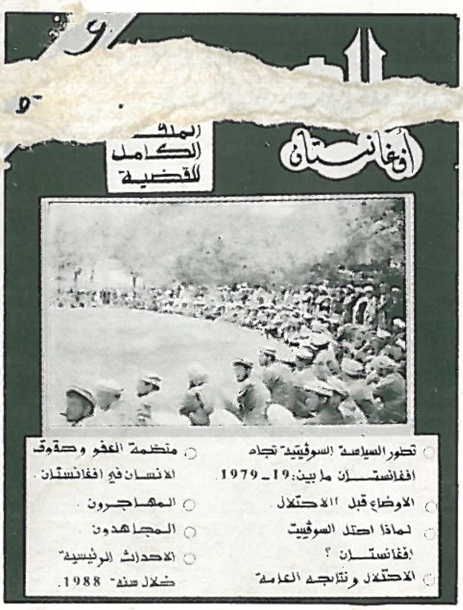

الهدى
اسلامية جامعة
مصير الجهاد الافغاني ومسؤوليات المسلمين
نحو فقه للقصص القرآني
الاعلام التلفزي والتوعية الدينية
لا سنة من غير فقه


الهدى
قراءة في مصادر التفسير
أحكام الله بين نصوص الشرع واجتهاد العقل
حول حركة التجديد المعاصرة
وقفات مع محمد أركون من خلال إنتاجه وفكره
حوار مع الدكتور محسن عبد الحميد حول الفكر الاسلامي الحديث: الواقع والتحديات
AL HOUDA
توقيف مجلة الأمة ومحنة الكلمة الاسلامية


اسلامية جامعة
الهدى
في هذا العدد
مفاهيم العدل والظلم في القرآن
في رحاب السيرة النبوية
الإسلام يزحف : أيها الرجل الأبيض
فضيحة من فضائح الإرهاب الصهيوني
الأدب الصهيوني : الجذور والأحقاد
مجتمعنا المغربي وأزمة الثقافة
رسائل إلى المجلة
19


الهدى
قضية التفسير الجديد للقرآن
أمراض الصحوة الإسلامية
وقفات مع محمد أركون
حوار مع الأستاذ إدريس الكتاني حول انحراف الأحداث
عرض كتاب في النقد الذاتي
ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية


AL HOUDA
الهدى
في رحاب السيرة النبوية
الحداثة والتراث
علمنة الإسلام
17/16


أفغانستان
الملف الكامل للقضية
تطور السياسة السوفييتية تجاه أفغانستان ما بين: 19 - 1979
الاوضاع قبل الاحتلال
لماذا احتل السوفييت أفغانستان؟
الاحتلال ونتائجه العامة
منظمة العفو وحقوق الانسان في أفغانستان
المهاجرون
المجاهدون
الاحداث الرئيسية خلال سنة 1988